منهاج الصواب
في قبح استكتاب أهل الكتاب

لمؤلف مغربي مجهول في القرن الحادي عشر الهجري

تحقيق
داود علي الفاضل
"أستاذ بكلية الشريعة بفاس"

دار الغرب الإسلامي

منهاج الصواب
في قبح استكتاب أهل الكتاب

مِنهَاج الصَّوَاب
في قبح استكتاب أهل الكتاب

لمؤلف مغربي مجهول في القرن الحادي عشر الهجري

تحقيق

داود علي الفاضل
"أستاذ بكلية الشريعة بفاس"

دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

1402هـ . 1982م .

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يطيب لي أن أقدم كتاب «منهاج الصواب في قبح استكتاب أهل الكتاب» للمكتبة الإسلامية المطبوعة، خدمة للباحثين، وعلى الخصوص المهتمين بالفكر الإسلامي في شمال افريقيا، مساهمة في تصوير هذا الفكر في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي في بلاد المغرب، وهو إبراز الدور العلمي لبعض علماء الإسلام في مقاومة الاستعمار، الذي كان يتمثل في تلك الفترة بسيطرة أهل الكتاب على شؤون المسلمين وعلى الخصوص اليهود الذين استطاعوا أن يصلوا إلى مراكز هامة في الدولة في القرن التاسع الهجري وبالذات في عهد السلطان عبد الحق[1] الذي أوقع ببني وطاس وولى على شؤون المسلمين اليهوديين «هارون» و«شاويل» اللذين أخذا أهل فاس بالقمع ومصادرة الأموال حتى اعتز بهما اليهود في المدينة وصاروا أصحاب الكلمة في الأشراف والفقهاء.

---

(1) أنظر / الناصري / الاستقصا جـ 4 ص 98 — 100.

ومما يروى في هذا المصدر أن المسلمين لم يسكتوا على هذا الفعل، بل قاموا ضده وقتلوا السلطان المذكور عندما لاحظوا تطاول اليهود على المسلمين وبالذات عندما تطاول يهودي على إمرأة شريفة في حومة «البليدة» بفاس وضربها وأوجعها، فاجتمع الناس على أثر ذلك بخطيب القرويين أبي فارس عبد العزيز بن موسى الورياجلي الذي خلع طاعة السلطان وأمر بالفتك باليهود وإسلاب أموالهم وقام الناس بقتل السلطان المذكور واخذوا منه ختم الملك واسندوه إلى نقيب الأدارسة بفاس أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي الجوطي العمراني وكان ذلك في سنة 869 هـ .

واستطاع الاسبان إنتزاع جبل طارق من يبرثي الأحمر سنة 867 هـ كما استولى البرتغال في سنة 869 هـ على طنجة حيث زحفوا إليها من سبتة واستمرت في أيديهم أكثر من قرنين ونصف من الزمان أي إلى أن سلموها للإنجليز سنة 1074 هـ ثم توالت[1] سيطرة الاسبان على «أصيلا» و«الدار البيضاء» في سنة 876 هـ والجديدة سنة 907 هـ والعرائش وأكادير سنة 910 هـ وآسقي سنة 912 ولم يبق بيد المغاربة إلا سلا والرباط.

وفي القرن العاشر الهجري إزداد انتشار اليهود في مدن وقرى بلاد المغرب وسكنوا المراكز التجارية التي تمر بها القوافل المحملة الذهب بين شمال افريقيا والسودان واشتغل اليهود بالتجارة وصياغة الحلي وسك النقود وتجارة السكر وأقاموا علاقات تجارية مع كبار التجار وأرباب السفن والشركات التي كانت على صلة بالمغرب في ذلك الوقت

وعندما توجه العلامة محمد بن عبد الكريم المقيلي المتوفى سنة 909 هـ إلى توات[2] في صحراء المغرب الأوسط رأى من اليهود تجاوزاً للحدود الشرعية، وتساهلاً من المسلمين في حق هؤلاء اليهود حتى صار المسلم يقرب اليهودي من نفسه وأولاده ويستخدمه في أعماله ويوكله في ماله، حتى تمكن اليهود من السلطة وزاد نشاطهم في إحداث البيع والاستعلاء على المسلمين.

فاستنكر محمد بن عبد الكريم المقيلي هذه السيطرة الاقتصادية والاستخفاف بالأحكام الشرعية واحتقارهم لفقراء المسلمين، ورأى في هذا

(1) الناصري / الاستقصا جـ 4 ص 110.

(2) محمد بن عبد الكريم المقيلي / مصباح الأرواح في أصول الفلاح ص 13 تحقيق رابح بونار
ومحمد حجي الحركة الفكرية في عهد السعديين ج 1 ص 267
أحمد الونشريسي المعيار المعرب ج 2 ص 170 — 185
ابن مريم / البستان. . . ص 253
محمد الحسني / دوحة الناشر ص 130 تحقيق محمد حجي
آدم لوري / الإمام المقيلي وإشاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا ص 83
وقد تعرضت لهذه المسألة في كتابي «فتح المجيد بكفاية المريد» دراسة وتحقيق جـ 1 ص 46.

نقضاً من اليهود لعهد الذمة الذي يقوم أساساً على الخضوع للمسلمين في مقابل حمايتهم والسماح لهم بالعيش بين أظهرهم، وعارضه قاضي توات عبد الله العصنوني وقام كل منهما بمراسلة علماء الإسلام في فاس وتلمسان وتونس للإفتاء في هذه النازلة، وقام المقيلي بتأليف كتاب «ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار» سماه رابح بونار «مصباح الأرواح في أصول الفلاح» شرح في الفصل الأول منه ما يجب على كل مسلم ومسلمة من مجافاة اليهود وفي الفصل الثاني ما يجب على أهل الذمة من الجزية والصغار، منبهاً على ضرورة منعهم من احداث البيع والكنائس، وهي مسألة كانت مثار نزاع كبير في الصحراء آنذاك. وفي الفصل الثالث، تعرض لما عليه يهود هذا الزمان في أكثر الأوطان من الجور كيهود توات وتفيلات وكثيراً من الأوطان بافريقيا وتلمسان واحل دماءهم وأموالهم وأولادهم ونساءهم ولا ذمة لهم.

وجاءت الردود المختلفة إتسم بعضها بالإعتدال[1] كرد ابن غازي المتوفى 919 هـ كما اتسم بعضها الآخر بالمعارضة من بعض علماء فاس الذين عمل المقيلي على السفر إليهم ومناظرتهم لإقناعهم ومعه ستة من فقهاء السودان الذين يقال بأنهم كانوا يحفظون المدونة. وتلقاه العلماء خارج مدينة فاس بمظاهر الإكرام والإجلال، إلا انه فاتحهم بالمناظرة بواسطة أحد مماليكه (فقهاء السودان) الفقيه ميمون كي يناظرهم في مسألة اليهود، فلم يرغب الفاسيون في الحديث مع المملوك ورجعوا إلى فاس غاضبين، ثم حذروا السلطان منه وأوهموه بأنه لا يريد الوعظ والإرشاد وإنما يطمع في الملك، وعندما قابل السلطان محمد الشيخ الوطاسي المتوفى 910/1505م عاتب المقيلي على ذلك فأقسم له انه لا يريد إلا الوعظ ورجع إلى توات بدون فائدة.

وكان الحافظ التنسي المتوفى 899 هـ من أبرز المناصرين للمقيلي حيث جاء في فتواه إن ما أحدثه اليهود من الكنائس هو خروج على الأحكام

---

(1) ـ د. محمد حجي / الحركة الفكرية في عهد السعديين جـ 1 ص 269.

الإسلامية، كما أيده في ذلك الإمام محمد السنوسي المتوفى 895 هـ في فتواه الجوابية التي أرسل بها إليه.

وكان لدعوة المقيلي صدى واسع في الصحراء والسودان حتى وقع التضييق على اليهود ومنعوا من الإقامة في بعض الأمكنة، وظلت أفكاره طوال العهد السعدي تتردد في أرجاء المغرب، على يد بعض العلماء كأبي القاسم بن خجو في الريف وعبد الله بن علي بن طاهر الحسني في تفيلالت وغيره[1] ممن كانوا يرون رأي المقيلي.

وعندما ضعفت الدولة السعدية عاد اليهود إلى تجبرهم واستخفافهم بالأحكام الشرعية، فعادت فكرة معاداة اليهود ومحاربتهم وكتب الفقهاء الفتاوى ضدهم في كل من سوس ومراكش والدلاء، واحتد الخلاف بين فقهاء سوس عندما أذن الأمير أبو حسون السملالي لليهود بإقامة كنيسة لهم ومقبرة بين معارض ومناصر الأمير، وكانت الغلبة لحزب المعارضة الذي استطاع أن يثير امتعاض السكان، وأخيراً لجأوا إلى تحكيم كبير فقهاء سوس عيسى السكتاني[2] المتوفى 1062 هـ وهو يومئذٍ مفتي مراكش، وكانت فتواه تقضي بمنع احداث بيع لليهود في البلاد الإسلامية كما نص على ذلك فقهاء المالكية، ويقال إن أبا حسون أمر بهدم بيعة اليهود بعد أن اطلع على فتوى السكتاني.

أما موقف[3] الدلائيين من اليهود، فإن أحداث عام 1056 هـ /1646م تشير إلى أن السلطان محمد الحاج الدلائي بعث برجال إلى فاس لهدم بيع اليهود ونفذ ذلك حاكم فاس أبو بكر التملي الذي تتبع الهدم للبيع الواحدة تلو الأخرى.

---

(1) ـ عثرت على نسخة وحيدة مؤلفة في سنة 1013 هـ تحت اسم منهاج الصواب في فتح استخدام أهل الكتاب «في ثمانية أبواب» في نفس الموضوع قمت بتحقيقها وهي تحت الطبع.

(2) ـ محمد مخلوف / شجرة النور الزكية ص 308.

(3) ـ د. محمد حجي / الحركة الفكرية في عهد السعديين جـ 1 ص 273.

د. محمد حجي / الزاوية الدلائية ص 208.

وكتاب «منهاج الصواب في قبح استكتاب أهل الكتاب» من الآثار العلمية التي تبرز أوشاهم في إبراز جانب من هذه المسألة في القرن الحادي عشر الهجري كما يذكر المؤلف. فقد ألفه بعدما رأى تمكن أهل الذمة في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وتكبروا على المسلمين، وأهانوا أهل الدين عندما قربهم (أي اليهود) الأمراء والوزراء، وظهر فسقهم في حرم المسلمين وخيانتهم لأموالهم، فأراد المؤلف أن ينبه أو يذكر ولاة المسلمين بما نسوه من أحكام الشريعة نظراً لما يمليه عليه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولم يذكر المؤلف إسمه على هذا الكتاب ولم يشر إلى سبب ذلك ولعله أراد بذلك عدم الاستهتار لنفسه طمعاً في الأجر والثواب لهذه النصيحة أو أنه أخفى نفسه خوفاً مما سيحل به من الإعلان سواء من اليهود أو من الولاة والوزراء الذين كانوا يقربونهم.

يتألف الكتاب من ثمانية أبواب، تحدث المؤلف في الأول عن النصيحة وحقيقتها ووجوبها، ثم حاول في الباب الثاني أن يجمع الآيات القرآنية التي تنتهي عن تقريب أهل الكتاب واستكتابهم مع محاولة الاستعانة بشرحها من كتب التفسير وعلى الخصوص تفسير ابن عطية ثم اتبع ذلك في الباب الثالث بالأحاديث التي وردت عن الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الخصوص، وبما ورد عن الصحابة والتابعين والسلف الصالح من النهي عن موالاة أهل الكتاب واستكتابهم واعزازهم وابتدائهم بالسلام. وبين في الباب الرابع صفة العهد المأخوذ عليهم، وفي الخامس بين صفة من يستحق العمل والكتابة للمسلمين، وفي السادس ذكر ما ورد بخصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي السابع ذكر ما يتعلق بالظلم وسوء العاقبة وختم بالباب الثامن بمواعظ وحكايات تزهد في الدنيا وترغب في الآخرة.

واعتمدت في تحقيقي لهذا الكتاب على نسخة استطعت الحصول عليها من أحد الباعة بطريق الصدفة عندما لاحظت أنها تتعلق في دراستي

بالقرون المتأخرة في المغرب، عدد صفحات هذه النسخة 64 أربعة وستون ورقة من الحجم الوسط مسطرتها 20×12 مكتوبة سنة 1224 بيد محمد الهاشمي بن محمد بن أحمد بن عبد المالك الحسني، بخط مغربي وسط، نسخاً عن نسخة أخرى لا نعرف متى كتبت. والنسخة مكتوبة بالمداد الأسود، والآيات والأحاديث التي كان المؤلف يستشهد بها مكتوبة باللون الأحمر.

وعند الرجوع إلى كتب الفهارس للبحث عن نسخ أخرى لم أجد لهذا الكتاب ذكراً، وكذلك في الخزائن المتوفرة، ولا عند الأساتذة المختصين بالوثائق والمخطوطات باستثناء الدكتور محمد حجي الذي أشار إلى اهتمام عدد من العلماء بهذا الموضوع كما أشرنا.

أول النسخة بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي أعز بالإسلام قوماً وأذل به آخرين. .» وأخرها «وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة يوم الخميس تاسع عشر ربيع الأول من شهور سنة ثلاثة عشر بعد الألف (1013) غفر الله لكاتبها، ومالكها وقارئها، ولكل المسلمين والحمد لله رب العالمين آمين».

داوود علي الفاضل

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

الحمد لله الذي أعز بالإسلام قوماً وأذل به آخرين وواعد بالزلفى من أقام بنصر دينه المبين وأثنى على من حادد أعداءه الخاسرين بقوله تعالى ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾[1] شرف الإسلام على سائر الملل، ونسخ به جميع الشرائع والنحل، وفضل أهله الآخرين على السابقين الأول وكبت به أعداءه أهل الزيغ والزلل وذوي الخطا والخطل، أوعد الكافرين بالخلد الدائم، وعذبهم في الدنيا بالقتل العاجل. وإعطاء الجزية على التزام الذلة والصغار، ليحقق بذلك ما وعد به المؤمنين بقوله تعالى، وهو أصدق القائلين «محمد رسول الله والذين معه، أشداء على الكفار»[2] ويشفي به صدور المؤمنين ويذهب به غيظ قلوب المسلمين، ويجزي الكافرين، ويقيم به صغار المتكبرين من أعدائه المكابرين ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً، فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾[3] عز أهل دينه وهداهم وفضلهم على جميع الأمم واجتباهم ومنعهم من موالاة الكفار، ونهاهم. وحضهم على اذلالهم، وعن مخالفة أمره حماهم. أسمعهم على لسان نبيه ﷺ ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[4] أحمده حمداً يستغرق جميع المحامد. وأشكره شكراً تصفو به

(1) ـ سورة المائدة آية 54
(2) ـ سورة الفتح آية 29
(3) ـ سورة الأنفال آية 37
(4) ـ سورة التوبة آية 29

المصادر من النعم والموارد «وأشهد» أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أرغم بها المرتاب والمعاند. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. الذي نسخ بشريعته جميع الشرائع، وأفحم بما أتاه من الآيات البينات المعاند له والمنازع. بعثه وأهل الكفر في ثياب العزة يرفلون، وفي أودية الغرة يهيمون ويرملون. قد أطغاهم الإمهال، وغرتهم الآمال. فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وتمددوا بالنعم وغرهم بالله الغرور، هذا وإن دار الكفر شديدة البنا ودار الشرك واسعة الفنا، والشيطان قد عبد من دون رب الأرباب، واستولى بحيل على العقول والألباب. ورياح الفي تنشأ عوداً، وبروقاً ورايات الكفر والظلم تخفق خفوقاً. فلما جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً فنهض (ﷺ) بما أمره الله به بقوة العزم، وشدة الحزم. وعادى قومه في ذات ربه، وأحل الدمار والبوار بالشيطان وحزبه، حتى ظهر نور الإيمان ساطعاً، وأصبح سلطان الإسلام لأسمر الكفر قامعاً (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه) الذين هم بأوامره مؤتمرون، ولنواهيه مزدجرون ﴿ أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون ﴾[5].

وبعد.

فإن الباعث لي على ما ذكرت، والحامل لي على ما وضعت، أني رأيت أعداء الله النصارى من أهل الذمة، قد تمكنوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وتكبروا على المسلمين، وأهانوا أهل الدين، واستحلوا المحارم، وتغلبوا بالمظالم، وتقووا على الفقراء، بوصلتهم إلى الأمراء والوزراء. ولقد رأيتهم وسمعتهم يسبون المسلمين إعلاناً. ويتقربون بهونهم قرباناً. وتواثروا عنهم واشتهروا، وبان فعلهم، وظهر فسقهم، في حرم المسلمين، وخياناتهم في أموال الموحدين وأي عيش يطيب مع وجود هذا الذل العظيم، وأي لذة تستطاب مع الخطب الجسيم، فالموت في هذا الوقت خير من الحياة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ومن جملة ما أثار عزمي، مع كثرة حزني، لهذا الخطب وهمي اني رأيت أهل الحمل

(5) ـ سورة المجادلة آية 22.

والعقد عن هذه المصيبة غافلين، وعن القيام فيما يجب عليهم فيها متغافلين، وخشيت أن يعم العذاب وتنزل المصائب على جميع الخلق لقوله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديدالعقاب ﴾[6] وقوله (ﷺ) لعائشة «حين قالت له أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال نعم إذا كثر الخبث»[7]. أحببت أن أذكرهم ما نسوه من أحكام الشريعة. وأعلمهم ما جهلوه من مقاماتها الرفيعة. خشية عقاب الله في الكتمان، ورجاء ثوابه في الإعلان. فإن أخذوا بشريعة الله فهو المراد. وإن أغثوا على ذلك ـ والعياذ بالله ـ بأوامر الله بالبعاد. وأكون أنا وهم كما قال الله تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء. وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾[8] ولأكون من الذين قال فيهم سيد الأولين والآخرين، ﴿ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ﴾[8أ] ولما رأيت مآلي في ذلك من الأجر العظيم، ورجوت فضل الله ونعمته في إزالة هذه الغمة عن هذه الأمة، استخرت الله تعالى، في عمل كتاب يشتمل على ما حضر لي مما في كتاب الله تعالى، من النهي عن تقريب أهل الذمة، وموالاتهم واعزازهم، واستكتابهم. وعلوهم على المسلمين، وما يجب عليهم لمقتضى العهد. وما في ذلك من الأحاديث النبوية وأخبار السلف، وأقوال العلماء. ما يكشف عن الحقائق وتبين الفائق من التائق سميته.

«منهاج الصواب في قبح استكتاب أهل الكتاب» ويتم الغرض به في ثمانية أبواب.

تفاؤلاً بأبواب الجنة ليكون لها سبباً إلى الوصول، وقائداً للدخول إن شاء الله تعالى وإلى الله أرغب أن يكون خالصاً لوجهه الكريم. بمنه وفضله العميم. وهو حسبي ونعم الوكيل.

(6) سورة الأنفال آية 25.

(7) مسلم / كتاب الفتق 2 عن حرملة بن يحيى جـ 4 / والبخاري في الفتن.

(8) سورة الأعراف آية 165

(8أ) بخاري مناقب 28/ ومسلم في الإمارة باب 53 حديث 1920

الباب الأول

في النصيحة وحقيقتها ووجوبها.

الباب الثاني

فيما ورد في الكتاب العزيز من النهي عن تقريبهم واستكتابهم وموالاتهم.

الباب الثالث

فيما ورد عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين والسلف الصالح من النهي عن موالاتهم واعزازهم وابتدائهم بالسلام.

الباب الرابع

في صفة العهد المأخوذ عليهم وما يشاكل ذلك.

الباب الخامس

في صفة من يستحق العمل والكتابة للمسلمين.

الباب السادس

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الباب السابع

في الظلم وسوء عاقبته.

الباب الثامن

في مواعظ وحكايات تزهد في هذه القبائح وترغب في الدار الآخرة. هذا وإن شرف مقداره، وكثرت فوائده، وعظم وقعه من نفوس المسلمين. فإني أرغب لمن يقف عليه أن يستوفيه مطالعة، فإن الفوائد فيه منتثرة، والجواهر فيه منتشرة، ومطالعته بكماله ـ إن شاء الله ـ يحصل المقصود، في إبعاد النصارى واليهود. وإن عثر الواقف عليه على غلطة أو هفوة، فليصلحها إن أراد، وإن أمكنه تأويلها على وجه لائق بالصواب فليتركها، ويقتفي في ذلك سبيل ذوي الكرامات، فليس المقصود من هذا الكتاب إلا الشفا من أعداء الله تعالى، والتحذير من سوء عاقبة ذلك. ولم أسلك فيه تدقيق المباحث، ولا إغماض العبارة ليفقهه، كل من وقف عليه ويبسط ونختم الكتاب بها.

البَـابُ الاول

الأول في النصيحة؛ اعلم أيترك تعالى أن مما ظهر في الأرض من الفساد وغدت مقاليد المـذلة في رقـاب العباد، وخُشي من أجله زوال النعم، وحلول النقم، وخراب البلاد، وهلاك العباد، باستيلاء اليهـود والنصارى على المسلمين، أولياء رب العالمين. يتحكمون فيهم، ويتكبرون عليهم، ويطعنون في دينهم، ويضربونهم ويسبونهم. وتملكوا البلاد بلطف الحيلة، وشدة الخديعة. والمكر للأكابر. فهم الأعزاء في المعنى، وكلمتهم كلمة واحدة. يتعاونون كلهم عـلى أذى المسلمين وإهـانتهم. ويومونهم الخسف، ويطئونهم بـالعنف. ويشفون صـدورهم من المؤمنين. وقـوي ضررهم واشتدت البلية، وأيقنت أهل الملة المحمدية من أعدائهم شر البرية. فحقيق بالعـدو إذا ظفر بعدوه أن يـــذيقـه من النكال، ما لا يخطر له ببال، وخشيت أن يغضب الله تعالى لأوليائه، فيظهـر للإنتقـام ممن ملكهم وينزل العقوبـة بمن حكمهم. فحملتني الشفقة عـلى المسلمين، والنصح لطوائف الموحدين. أن أبذل لهم النصح. ورجوت زوال هذه الشدة والقبح. بالنصيحة سنة النبيئين ولريق الصحابة، والتابعين، والعلماء والصالحين. قال الله تعالى أخباراً عن صالح عليه السلام ﴿ ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾[9] وقال تعالى أخباراً عن شعيب عليه السلام ﴿ ونصحت لكم فكيف أسى على قوم كافرين ﴾[10] وقال تعالى أخباراً عن

---

(9) ـ سورة الأعراف 79

(10) ـ سورة الأعراف 93

نوح عليه السلام ﴿ ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾[11] وقال ﴿ وانصح لكم واعلم من الله ما لا تعلمون ﴾[12] وقال تعالى أخباراً عن هود عليه السلام ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾[13] وقال تعالى ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل ﴾[14] وقال ﷺ «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين»[15] وقال عليه السلام «ان الدين نصيحة» قالوا لمن يا رسول الله قال «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم»[16] قال الإمام أبو سليمان البستي[17] النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له. وليس يمكن أن يعبر بكلمة واحدة تحصرها. ومعناها في اللغة[18]، الإخلاص من قولهم نصحت العسل، إذا خلصته من شمعه. وقال العلماء فعل الشيء الذي به الصلاح. والملامة مأخوذ من النصاح، وهو الخيط الذي يخاط به الثوب. فنصيحة الله صحة الاعتقاد له بالوحدانية. ووصفه بما هو أهله. وتنزيهه عما لا يجوز له، والرغبة في محبته. والبعد عن مساخطته. وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عاداه، والجهاد في رد العصاة لله قولاً وفعلاً، والإخلاص في عبادته. فهذه نصيحة الله تعالى. والنصيحة لكتابه الإيمان

---

(11) ـ سورة هود 34

(12) ـ سورة الأعراف 62

(13) ـ سورة الأعراف 68

(14) ـ سورة التوبة 91

(15) ـ صحيح مسلم بلا إيمان 43، أبو داوود ادب 125. . طبراني استئذان 43

(16) ـ صحيح البخاري / إيمان 42 وصحيح مسلم / إيمان 95

(17) ـ هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي السبستي، من ولد زيد بن الخطاب أخ عمر بن الخطاب (أبو سليمان) إشتهر بالحديث والفقه والأدب.
ولد وتوفي ببست في رباط على شاطيء هِنْدِمِنْد من آثاره معالم السنن في شرح كتاب السنن لأبي داوود غريب الحديث، شرح البخاري، أعلام الحديث، إصلاح الغلط / معجم المؤلفين 61/2 ياقوت / معجم الأدباء 246/4 — 260 الذهبي / تذكرة الحفاظ 209/3 — 211 القفطي / انباء الرواة 125/1

(18) ـ أنظر ابن منظور / لسان العرب 715/2 باب الحاء فصل النون

به، والعمل بما فيه، وتحسين تلاوته، والتخشع عنده، والتعظيم له، وتفهمه والتفقه فيه، والرد منه على تأويل القالين، وطعن الملحدين، فهذه نصيحة كتاب الله تعالى. والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر ونهى، ونصرته ومؤازرته، والحماية من دونه حياً وميتاً، وإحياء سنته بالطلب، وإحياء طريقته في بث الدعوة، وتأليف الكلمة، والتخلق بأخلاقه الطاهرة، والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما تكلفوا القيام به، في تنبيههم عند الغفلة. وإرشادهم عند الهفوة. وتعليمهم ما ذهلوا عنه، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء، وإعلامهم بفساد عيوبهم وسيرتهم في الرعية، وسد خلتهم عند الحاجة، ونصرتهم في جمع الكلمة عليهم، ورد القلوب النافرة. والنصيحة لجماعة المسلمين الشفقة عليهم، وتوقيرهم، والرحمة لصغيرهم، وتفريج كربتهم، ودعوتهم إلى ما يسعدهم، وتوقي ما يشغل خواطرهم، ويفتح باب الوسواس عليهم. وقيل نصيحة رسول الله ﷺ التصديق بما جاء به والاعتصام بسنته ونشرها، والحرص عليها، والدعوة إلى الله، وإلى كتابه، وإلى رسوله، والعمل بها. وقال أبو الدرداء[19]؛ العلم يبلغه البر والفاجر، والحكمة ينطق بها البر والفاجر. والنصيحة لله لا تثبت إلا في قلوب المحبين، الذين صحت عقولهم وصدقت نيتهم. واعلم إن جرعة النصيحة مرة، لا يقبلها إلاّ ذو العزم، وأهل الحزم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله إمرءاً أهدى إليّ عيوبي. ويروى عنه أنه قال أنشد الله رجلاً علم بي عيباً إلا أعلمني به، فقام إليه رجل فقال فيك عيبان إثنان. فقال وما هما يرحمك الله؟ فقال تذيل بين البردين، وتجمع بين ادامين. فما أزال بين البردين، ولا جمع بين إدامين، حتى لقي الله تعالى. (معنى يذيل يجمع بين ذيل البردين) وقال ميمون[20] بن مهران قال في عمر بن عبد العزيز قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما

(19) ـ صحابي، آخى رسول الله بينه وبين سلمان الفارسي. توفي سنة 132 هـ بدمشق وكان من كبار العلماء / أنظر / ابن عبد الله / الاستيعاب ص 1646.

(20) ـ كاتب عمر بن عبد العزيز، ذكره الشعراني بالطبقات الكبرى جـ 1 ص 35.

يكره. وقال مالك رحمه الله، النصيحة لله تعالى في أرضه هو الذي بعث إليها أنبياءه. ومن أمر الإسلام القصد والنصيحة لعباد الله عز وجل. واعلم أن النفوس متثقلة للنصح، نافرة عن أهله، مائلة إلى من يوافق هواها وفي نصوص[21] الحكم ودك من نصحك، وقلاك من مشى في هواك. وللثعالبي[22] من أحبك نهاك، ومن أبغضك أغراك. ويقال أخوك من احتمل ثقل نصيحتك. واعلم أن رأي غيرك، خير من رأيك، لأنه خلو من هواك. وقال أبو الدرداء إن شئتم لأنصحن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله، الذين يحببون عباد الله إلى الله ويحببون الله عز وجل إلى عباده، ويعملون في الأرض نصحاء. وروى أنس أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[23] ويقال في الأمثال السائرة، المحبة تقتضي النصح، وتجد المحبوب يريده لمحبوبه فوق ما يحب لنفسه. فالمسلم بطبعه يحب المسلمين، ويحب إيصال المنفعة إليهم بكل طريقة. واعلم أن الإنسان لا يقدر أن ينصح لكل أحد من المسلمين على حدته. ولو أراد ذلك لتعذر عليه. فينبغي إذا أراد أن ينصح المسلمين كافة لله، ينصح لملكهم، ولأرباب دولته، وينبههم على ما يقربهم إلى الله. ويحذرهم عقابه ويعلمهم ما يفضي بهم إلى ربهم عز وجل فبصلاحهم تصلح العامة، وترشد الكافة فيحق على جميع الورى أن يمدوا السلطان بالمناصحات ويخصوه بالدعوات ويعينونه على سائر المحاولات، وإذا أطلعوا على أمر فيه ضرر للمسلمين، وهو غافل عنه، اعلموه به، ونبهوه عليه،

(21) ـ ينسب لمحي الدين بن عربي وعلى شروح لخواجه بارسا وحيدر بن العلوي الحسيني وأحمد الحصكني المتوفى 895 هـ والاسترابادي ثم الشيرازي المتوفى سنة 946 هـ والبعلي الشهير بالبهائي المتوفى 1082 هـ / أنظر البغدادي إيضاح المكنون جـ 192/4.

(22) ـ هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (أبو منصور)، ولد سنة 350 هـ / 961 م، أديب، ناثر، ناظم، لغوي، أخباري، بياني، من تصانيفه الكثيرة ، فقه اللغة وسر العربية سحر البلاغة وسر البراعة. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. نثر النظم وحل العقد ثمار القلوب في المضاف والمنسوب. توفي سنة 429 هـ / 1038 م. أنظر/ ابن خلكان/ وفيات الأعيان 365/1، 366 ابن العماد / شذرات الذهب 246/3 كحالة/ معجم المؤلفين 188/6.

(23) بخاري / ايمان ٧، مسلم ايمان/ 71 -72.

وأيقظوه له. وسألوا الله تعالى أن يقوم عزمه على إزالته، وينجح قصده في محاولته ويكونوا له عيوناً ناظرة، وأيدي باطشة، وجثـما وافية. وألسنـة ناطقة، وهيهات له السلامة مع ذلك. وينبغي للمالك إذا أراد استقامة ملكه وصلاح دينه ودنياه، أن يتخذ العلماء شعاراً. والصالحين دثـاراً. فتدور المملكة بين نصائح العلماء، ودعاء الصلحاء. فيستقيم له سلطانه ويتم له ما يؤمله. فإن سياسة الشرع، خير من سياسة العقل. إذ العقل لا إطلاع له على العاقبة في الحقيقة، فربما رأى شيئاً حسناً وهو قبيح. وربما رأى شيئاً قبيحاً وهو حسن، كما قال الله تعالى: ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[24] ففي اتباع ما أمر الله تعالى به، وتجنب ما نهى عنه صلاح الدنيا والآخرة. إذ هو العالم بالعواقب. فإذا سلم العبد القياد له نجاه من كل مكروه، وساق إليه كل محبوب. وينبغي للملك أن يتفقد أمر رعيته، صغيرها وكبيرها. فإن في نظره صغار الأمور مصـالح تعـود إلى خطير الأمور، الا ترى أن الله تعالى آتى سليمان بن داوود ملك الدنيا والآخرة. والطير، والوحش، والأنس، والجن، ثم تفقد الطير. فقال «مالي لا أرى الهدهد»[25] لأن التهاون في اليسير أساس الوقوع في الكبير «وربمـا ذكر لبعض الجهال أمر النصارى، وقبيح طريقتهم، وذميم ما هم عليه من أذى المسلمين، فيقول النصارى أقل وأخس من أن يتحدث فيهم وهذا غلط كبير يفضي إلى فساد كبير، بل ينبغي للعاقل أن يحذر صغير أعدائه، ولا يهمله فإنه ربما كبر الصغير، وعظم الحقير قال الشاعر:

لا تحقرن صغيراً في مخاصمة	إن الذبابة تدمى مقلة الأسد
وفي الشرار لطف وهي محرقة	وربمـا أضرمت نـاراً على بلد»

فإذا ثبت هذا فطاعة الأئمة في الحق واحدة، ومعونتهم فيه وأمرهم به وترك الخروج عليهم، وإعلامهم بما فيه ضرر على رعيتهم مما لا إطلاع لهم عليه ولا علم لهم به يجب على الناس كافة لإمامهم، ومن قدر على ذلك، ولم يفعله كان خارجاً عن الجماعة، منسلخاً عن الطاعة، غاشاً

(24) ـ البقرة / 216 (25) ـ النمل / 20

للمسلمين ولأئمتهم، مخالفاً لربه، ناصراً للشيطن وحزبه نعوذ بالله العظيم من ذلك. وأما النصح لعامة المسلمين فهو إرشادهم إلى مصالحهم، ومعونتهم في أمر دينهم ودنياهم، بالقول والفعل وتنبيه غافلهم، وتبصير جاهلهم، ورفد محتاجهم، وستر عوراتهم، وكف الأذى عن جميعهم ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع إليهم، قال جابر[26] بن عبد الله بايعت رسول الله (ﷺ) على السمع والطاعة فيما استطعت والنصح لكل مسلم. ورحم الله عمر بن الخطاب لقد أخذ بحظه من هذا الباب. روى عنه الأصمعي[27] قال لقط عمر بن الخطاب نواة من الطريق فأمسكها بيده، حتى مر بدار قوم فألقاها في الدار تأكلها داجنهم. وروى أن رجلاً لطم إبراهيم[28] بن أدهم فرفع رأسه إلى السماء. وقال اللهم إني أعلم أنك تثيبني وتعاقبه، فلا تثيبني ولا تعاقبه. فانظر كيف قدم مصلحة أخيه المسلم على مصلحته في وقت غضبه. فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، لا جرم ان الله تعالى رفع قدرهم، وأشاد ذكرهم، ودخل بعض الناصحين لله ورسوله على بعض الخلفاء، فوجد عنده رجلاً من أهل الذمة وكان الخليفة يميل إليه ويعرفه فقال:

يا ملكا طاعته لازمة　　　وحبه مفترض واجب
إن الذي شرفت من أجله　　　يزعم هذا أنه كاذب

فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك فسأله، فلم يجد بداً من أن يقول هو صادق فاعترف بالإسلام. وسأذكر أمراً طيش عقلي، وبلبل حزني

---

(26) ـ هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي من بني سلمة. شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صغير. ثم شهد مع النبي ثمان عشرة غزوة. وكان من المكثرين الحفاظ للسنن وكف بصره في آخر عمره.

(27) ـ أنظر /ابن عبد البر/ الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ 1 ص 214

(28) ـ هو أبو إسحق إبراهيم بن أدهم بن منصور (رضي الله عنه) كان من كورة بلخ من أولاد الملوك. ومن كلامه. من علاقة العارف بالله أن يكون أكبر همه الخير والعبادة، وأكثر كلامه الثناء والمدحة، وكان إذا لم يجد الطعام الحلال يأكل الشراب، ومن وصاياه لبعض العلماء، كن ذنباً ولا تكن رأساً، فإن الذنب ينجو، والرأس يذهب، أنظر / الشعراني / الطبقات الكبرى جـ 1 ص 59

وأنجاني إلى ما ذكرته، وجعلته خاتمة هذا الباب، وذلك أني تذاكرت مع بعض العقلاء فيما انتهى إليه أمرالنصارى من نكاية أهل الإسلام. وفيما يتعاطونه من القبائح والفضائح، وبلغنا من ذلك مبلغاً من سوء فعالهم، وقبح أعمالهم يضيق هذا المحضر عن ذكره، ويفوت الغرض بنشره، ونستغني عن أخباره بخبره فقلت لو أطلع السلطان أيده الله على قبيح سيرتهم، وذميم طريقتهم، لاستأصلهم ولم يبقهم فقال لي في جوابه لا يقدر السلطان على تغييرهم فأنكرت قوله إنكاراً عظيمًا، ورددت عليه رداً عنيفاً. فقال أنا أبين لك ما أنكرت، وأعبر عن ما التزمت، وذلك ان كل واحد من الأمراء يعتقد أنه لا ينضبط ماله، ولا يصلح حاله، إلا باستخدام النصراني. فإذا كانوا كلهم على هذه الصورة، أشاروا كلهم على السلطان ببقائهم، وإن علم السلطان أيده الله فساد رأيهم في ذلك ما يمكنه مخالفتهم ولا يغضب أكابر عسكره لأجلهم. فرأيت ما قاله ليس ببعيد في المعقول، لما رأيت من تمكنهم عند أكابر الدولة. فانظر هؤلاء الخبثة الخونة كيف تمكنوا في البلاد، حتى يقال لا يقدر السلطان على تغيرهم فلا يؤمن منهم أن يعدوا إلى ما هو أشد من هذا. فإنهم إذا تمكنوا وهم وزراء سوء أطلعوا على أمور الدولة وبواطنها فكتبوا بذلك للأعداء وأظهروهم على عورات المسلمين، وأمدوهم بالأموال التي جمعوها من أموال المسلمين، كما فعل وزير صاحب[29] بغداد وأتلف من المسلمين ما لا يحصى. وهذه نصيحة وجب عليّ ذكرها، والتنبيه عليها، والإعلام بها، لعل أن يستيقظ أرباب الدولة من هذه الغفلة وينتبه من هذه الرقدة. وعسى الله أن يهيج لهذا الأمر من يقوم به ويريح الله المسلمين على يديه. من هذه الداهية الدهياء والداء. جعلنا الله من الناصحين أهل الدين، وباعد بيننا وبين أعدائه الكافرين وأدخلنا زمرة عباد المؤمنين إنه متولي الصالحين، ورب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(29) - . . .

البَابُ الثَّاني

فيما ورد في الكتاب العزيز من النهي عن تقريبهم واستكتابهم وموالاتهم. إعلم أيدك الله ان من لطف الله تعالى بالمسلمين، ورأفته بهم. وفضله عليهم، وبره بهم، حذرهم من أعدائهم ونهاهم عن وصلتهم، وأمرهم بمقاطعتهم، وحظهم على مباعدتهم. لعلمه تعالى بقبيح سرائر الأعداء للمسلمين وما فيها من العداوة والبغضاء. وفساد نيتهم وقبح طويتهم وغيظ قلوبهم، وغشهم للمسلمين، وردأتهم ومكرهم. كل ذلك دفعاً لمكائد الأعداء وتحذيراً من نكايتهم، وبين ذلك، ونبه عليه، وصرح به في غير ما آية في كتابه العزيز، رأفة منه بأوليائه وأحبابه. وتكرر النص في ذلك تكراراً كثيراً تعظيمًا لأمره وتفخيمًا لضرره، وتفضلاً على عباده. فنبذوا كتاب الله، واشتدت البلوى، وعظمت الشكوى. (وضاقت) الصدور، وفسدت الأمور، بتقريب أعداء الله، ومخالفة أوامر الله عز وجل، بموالاتهم، واستكتابهم، ومشاورتهم في أمر المسلمين، واستعلائهم على المؤمنين. يتحكمون فيهم بأهوائهم. وسمعت ذكر الله عز وجل يقول ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[30] فذكرت مما حضرني مما في كتاب الله العزيز من الآيات في هذا المعنى، ما تيسر لي ذكره. ولم التزم حصر ما وقع في الكتاب الكريم، ولا الاستنباط منه للغوامض، وإنما أذكر ما فيه تصريح، أو تلويح، وذكرت في كل آية بما فسرها به العلماء، متوخياً في

(30) ـ / الذاريات / 55

ذلك الإيجاز والاختصار، دون التطويل والإكثار. قوله تعالى ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾[31] روي عن رسول الله ﷺ انه قال: «المغضوب عليهم اليهود، والضالون النصارى». وقد أمرنا الله تعالى أن نسأله كل يوم وليلة مراراً كثيرة في عدد ركعات الصلوات، أن يجنبنا طريقتهم ويسلك بنا غير سبيلهم. فكيف نسوغ مودتهم مع ذلك. وقد ذمهم الله بأقبح ذم بالغضب والضلال فمن غضب الله عليه وأضله، ينبغي تجنبه حسبما أمكن البعد منه. وكفى بهذه الآية توبيخاً وذماً. فلو لم يرد في ذمهم سوى هذه الآية، كانت كفاية في تجنبهم وازعة عن موادتهم. واعلم أن الأدب اللايق بجلال الله تعالى متعذر منا، فمن لطف الله أمرنا أن نتأدب معه كما نتأدب مع أكابرنا. ونحن نرى الملك إذا غضب على شخص لا يقدر أحد يواده، ولا يجتمع به خشية من غضب الملك عليه. وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾[32] وقد قال تعالى إنكاراً على فاعل ذلك ﴿ ألم ترَ إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾[33] تعجباً منهم وإنكاراً لفعلهم ثم توعد على ذلك بالعذاب الشديد كيف وقد قال تعالى ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ أخبر الله تعالى أنه عدو هذه الطائفة. ومن كان الله عدوه أهانه وأبعده وطرده، يجب النفور منه والتشاؤم منه. فلو أن السلطان أيده الله مثلاً، قال لأرباب دولته ولرعيته فلان عدوي، هل يقدر أحد أن يجتمع به، أو يواده أو يحدثه، أو يخلو به أو يشاوره في أمر من الأمور. كل ذلك خشية من السلطان أن ينتقم منه أو يحل به العقوبة، أو ينزل به النقمة. فينبغي أن يحذر عقاب الله تعالى من تقريب أعدائه. فسبحان الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة. أنظر بعقلك إلى ما أنزل الله تعالى في محكم الكتاب، وهو قوله تعالى ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا

(31) ـ / أنظر/ القرطبي / الجامع لأحكام القرآن جـ 1 ص 149 / من حديث عدي بن حاتم وقصة إسلامه. أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده والترمذي في جامعه، وشهد لهذا التفسير أيضاً قوله سبحانه «وباؤا بغضب من الله».

(32) ـ / الممتحنة / 13

(33) ـ / المجادلة / 14

المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾[34] أخبر تعالى أن هذه الطوائف صفتهم أنهم لا يحبون للمسلمين خيراً. وخبر الله تعالى حق، فهل بعد هذا الإنذار غاية. فلو أخبرك رجل صالح ممن تعتقده، أن فلاناً لا يريد لك خيراً أبعدته منك، وحذرت منه، (ولم تطلعه) على سرك، ولم تستشره في أمرك. وكثير من جهال المسلمين، يعتقد أن النصارى أعلم من المسلمين بمباشرة الحزم عن هذه الآية. فلو كان الأمر على ما يظنون إمتنعت ولايتهم لهذه الآية. فإنهم يغشون ولا ينصحون، لأنهم لا يريدون خيراً. فلا يقوم نفعهم بضررهم، فهم كما قال الله تعالى في الخمر والميسر ﴿ واثمهما أكبر من نفعهما ﴾[35] وكما قال تعالى ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبيس المولى ولبيس العشير ﴾[36] والمسلمون أخبر وأذكى وأعلم وأهدى لأن الله تعالى يقول: ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾[37] الله ولي الذين أمنوا قيل ناصرهم، وقيل محبهم، وقيل متولي أمرهم، لا يكلهم إلى غيرهم. ومثل هؤلاء ينبغي ولا يتهم، رجاء بركتهم واعتماداً على ثناء الله تعالى عليهم فلو وجدت منهم خيانة والعياذ بالله فنفعهم أولى، من نفع الكفار، تيقظاً لقوله تعالى ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾[38] ثم قال ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾ لمحاددتهم ومشاقتهم ﴿ والله يدعو إلى الجنة ﴾ إلى عمل يوصل إلى الجنة ﴿ ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ يتعظون. قوله عز وجل ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، ألا أن تتقوا منهم تقاة. ويحذركم الله نفسه. وإلى الله المصير ﴾[39] هذا النهي عن الاتخاذ (إنما هو) في ما يظهر المرء، فإما أن يظهر ولا يتيهم في دينه فلا يفعل هذا مؤمن والمنهيون هنا قد قدر لهم الإيمان. فالنهي إنما هو عن إظهار الميل للكفار

(34) ـ / البقرة / 105
(35) ـ / البقرة / 219
(36) ـ / الحج / 13
(37) ـ /آل عمران / 68.
(38) ـ / البقرة / 221
(39) ـ / آل عمران / 39

واللطف بهم. وقوله تعالى ﴿ فليس من الله في شيء ﴾ مرضي على الكمال. والصواب قاله ابن[40] عطية وقال الواحدي[41] أي من دين الله. أي قد برء من الله وفارق دين الله. ثم استثنى فقال «إلا أن تتقوا منهم تقاة» هذا في المؤمن إذا كان في قوم كفار وخافهم على نفسه وماله، فله أن يداريهم بلسانه، وقلبه مطمئن بعداوتهم دفعاً عن نفسه. فقال ابن عباس رضي الله عنه، مدارة ظاهرة. قال ابن عطية ثم أباح الله تعالى إظهار إتخاذهم بشرط أن يتقوا أو يخافوا. فإما إبطان إتخاذهم فلا يصح أن يتصف به مؤمن. قال الثعلبي[42] وقال بعضهم إنما كان هذا في جدة الإسلام وقبل استحكامه، فأما اليوم فقد أعز الله المسلمين فلا ينبغي لأهل الإسلام أن يوالوهم في الظاهر، لعزة الإسلام. وقال سعيد[43] بن جبير ليس في الإسلام تقية. وقوله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ تهديد ووعيد لمتولي الكفار. ووعظ وتذكير بالآخرة، ويخوفكم من عذابه وعقوبته وبطشه. والنفس ها هنا خطاب بما يفهمه البشر، وهي بمعنى الذات. قوله عز وجل ﴿ قل أن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه، يعلمه الله، ويعلم ما في السماوات، وما في الأرض، والله على كل شيء قدير ﴾[44] قوله أن تخفوا ما في صدوركم من مودة الكفار، أو تبدوه من موالاتهم قولاً وفعلاً يعلمه الله. ويعلم ما في السموات وما في الأرض، معناه إذا كان لا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض، فكيف تخفى عليه موالاتكم للكافرين وميلكم إليهم مودة بالقلب، أو معونة بالقلب، أو معونة بالقول والفعل.

(40) ـ / المحرر الوجيز جـ 3 ص 54 /

(41) ـ / هو علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري الشافعي (أبو الحسن) إمام في التفسير واللغة والفقه أصله من ساوه. توفي بنيسابور 468 هـ / 1076م من إشارة البسيط في 16 مجلداً

(42) ـ في التفسير «المغازي شرح ديوان المتنبي» الأغراب في الأعراب ونفي التحريف عن القرآن الشريف. أنظر معجم المؤلفين 26/7 ابن خلكان / وفيات الأعيان 419/1

ـ أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي / الكشف والبيان في تفسير القرآن عند تفسير قوله تعالى ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ 39 آل عمران مخطوط في الخزانة الملكية بالرباط 3350

(43) ـ / أبو إسحاق الثعلبي / الكشف والبيان السالف الذكر ومن نفس المكان.

(44) ـ / آل عمران / 29

والمعنى أنكم إن أنطقتم الحرص على موالاتهم، فإن الله يعلمه ويكرهه منكم، وقوله تعالى ﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾[45] يحتمل أن يكون إشارة إلى التحذير لأن التحذير وتنبيهه على النجاة رأفة منه بعباده. ويحتمل أن يكون للجميع بين التأنيس والوعيد. ليلاً يفرط الوعيد، مثل قوله ﴿ إن ربك سريع العقاب، وإنه لغفور رحيم ﴾ وقوله عز وجل ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني، يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾[46] من علامة محبة الله ورسوله إتباع شريعته، ومجانبة الكفار وترك موالاتهم.

قال الشاعر:

تـود عدوي ثم تـزعم أنني ... صديقك ليس الهون عنك بعازب

وقال أخر:

صديقك عدوي داخل في عداوتي ... وإني لمن ود الصـديـق ودود

فلا تقربن مني وأنت صديقه ... فإن الذي بـين القلوب بعيد

(وهؤلاء) كلهم يبغضون سيد المرسلين. فلا يتم لنا محبة الله ورسوله إلا ببغض الكفار. والصديق في حب النبي ﷺ، من تظهر عليه علامات، منها الاقتداء به، واستعمال سنته، وإتباع أقواله، وأفعاله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه. قوله عز وجل ﴿ فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[47] وعيد عظيم لمن يتولى الكفار، واعراض عنه وتقبيح لفعله. وكفى بهذا خزياً وإبعاداً قوله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾[48] قال ابن عطية معناه بالتشكيك والمخادعة، وإظهار الغش في معرض النصح. قلت وهكذا التحذير لطف من الله تعالى، ورأفة بالمؤمنين وإعـلام بما انطوت عليه قلوب الأعداء، من إظهار العداوة والبغضاء. قوله عز وجل ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾[49] لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في

(45) ـ / آل عمران / 30

(46)/ آل عمران / 31

(47) ـ / آل عمران / 32

(48) ـ /آل عمران / 100.

(49) ـ / آل عمران / 111

الأموال وإنما هو أذى بالألسنة فالاستثناء متصل وقال الحسن وقتادة وغيرهما، الأذى هو تحريفهم أمر محمد (ﷺ) وتكذيبهم إياه. قال ابن عطية[50] «وتنقصهم المؤمنين وطغيانهم عليهم جملة وافراداً. وهذا كله عظيم مقلق، وبسببه استحقوا القتل والإجلاء، وضرب الجزية. لكن أراد الله تعالى بهاتين الآيتين، أن يلحظهم المؤمنون بعين الاحتقار، حتى لا يصدوا أحداً عن دينه، ولا يشغلوه عن عبادة ربه». قوله عز وجل ﴿ ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة.. الآية ﴾[51] قوله ضربت (عليهم) الذلة أي ثبتت بشدة التزام وقوله تعالى ﴿ أين ما ثقفوا ﴾ أي وجدوا إلا بحبل استثناء منقطع وهو نظير قوله تعالى ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ﴾[52] لأن هذا يعطي أن له أن يقتله خطأً وإن الحبلْ من الله ومن الناس مزيل للذلة. وليس الأمر كذلك وإنما في الكلام محذوف يدركه السامع الناظر. وتقديره فلا نجاة من الموت إلا بحبل. والحبل العهد لأنه يصل قوماً يقوم في صيانة الدماء وقوله تعالى ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾[53] أي التذلل والضعة قوله عز وجل ﴿ يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً وَدّوُاْ ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾[54] نهى الله المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من اليهود والنصارى إخلاء يأنسون لهم في الباطن في أمرهم، ويفاوضونهم في الاراء، وينتمون إليهم، ومعنى لا يألونكم أي لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم تقول ما ألوت في كذا أي ما قصدت، بل اجتهدت. والخبال الفساد. روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتمكم عربياً»[55]. فسره الحسن بن الحسن فقال أراد عليه

(50) ـ / المحرر الوجيز جـ 3 ص 196

(51) ـ / آل عمران / 112 / المحرر الوجيز 197/3

(52) ـ / النساء 92

(53) ـ / آل عمران / 112، / المحرر الوجيز 198/3

(54) ـ / آل عمران / 118 / المحرر الوجيز 207/3.

(55) ـ / ابن عطية / المحرر الوجيز 207/3 والحديث رواه أبو يعلى وأحمد والنسائي 156

السلام لا تستثيروا المشركين في شيء من أموركم ولا تنقشوا في خواتمكم محمداً. قال العلماء العاملين (رضي الله عنهم) ويدخل في هذه الآية استكتاب أهل الذمة وتصرفهم في البيع والشراء. قال عمر[56] بن ملك كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الأجناد إن الله تعالى قد أغنى بالمسلمين(فلا تجعلوا) النصارى في أعمالكم، قال ابن رشد[57] في كتاب «البيان والتحصيل» إنما كتب عمر (رضي الله عنه) بذلك لأنه مسؤول عن رعيته. فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته. وإذا وجب على الإمام النظر عن رعيته فيما يدخلُ عليهم الضرر في أموالهم فنظره فيما يدخل به الضرر في أديانهم أوجب. «وروي أن أبا موسى الأشعري[58] إستكتب ذمياً. فكتب إليه عمر يعنفه. وتلا عليه هذه الآية. وقيل لعمر (رضي الله عنه) إن ها هنا رجلاً من نصارى الحيرة، لا أحد أكتب منه، ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك. فقال «إذا اتخذوا بطانة من دون المؤمنين». ومعنى «ودوا ما عنتم» أي ما تكرهونه، ويشق عليكم، قال السدي[59] ومعناه ودوا ما ضللتم قوله تعالى ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ يعني بالأقوال فمنهم المتستر الذي تبدو البغضاء من عينيه وخص الله تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة إشارة إلى تشدقهم وبربرتهم في أقوالهم هذه، وقوله تعالى ﴿ وما تخفي صدورهم أكبر ﴾[60] إعلام بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر ما يظهرون بأفواههم ثم قال تعالى للمؤمنين ﴿ قد بينا لكم الايات إن كنتم تعقلون ﴾ «تحذيراً وتنبيهاً» وقد علم تعالى أنهم عقلاء ولكن هذا هز للنفوس كما يقول إن كنت رجلاً فافعل كذا وكذا. قوله عز وجل ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنّا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم، إن الله عليم بذات الصدور﴾[61] أخبر تعالى في هذه الآية ان هذه الطائفة لا تحب

(56) . . .
(57) ـ يوجد منه نسخة في الخزانة الملكية 1543 في عشرين مجلداً وأخرى في سبعة مجلدات
(58) ـ / ابن عطية / المحرر الوجيز 208/3
(59) ـ / ابن عطية/ المحرر الوجيز 208/3
(60) ـ/ آل عمران / 118، المحرر الوجيز 209/3
(61) ـ / آل عمران / 119

المؤمنين ولا تحب لهم خيراً بل يحبون لهم الشر ويفرحون به ويستبشرون بنزول الضرر بهم ومن كانت هذه صفته ينبغي للعاقل أن يحذره ويجنبه حسبما أمكنه. لو لم يرد بذلك أمر من الشرع لفعله، فكيف وقد ورد هذا التحذير العظيم، والوعيد الشديد. وقد أخبر الله تعالى ان هذه صفتهم وقد انطوت عليها نياتهم، وهو العليم بخلقه. وفقه الله تعالى المؤمنين بهذه الآية على إعذارهم القبيحة، وأوصافهم الزميمة. فيمقتوهم، ويبغضوهم، ويحذروا منهم. فإن في مخالطتهم فساداً، وفي موالاتهم ضرراً كبيراً في الدنيا والآخرة. ثم أعلمهم الله تعالى انهم منافقون عليهم، ويستخفون بهم، ويغتاظون منهم، ويريدون بهم الدوائر. وقوله تعالى ﴿ عضواً عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على انقياده. ومنه قول أبي طالب يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل. والعض بالأنامل، هيئة تتبع هيئة النفس الغاضبة، المتلهفة على نيل الأذى من المسلمين. كما أن نزع السن هيئة تتبع هيئة النفس النادمة. وقوله تعالى ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ هو دعاء عليهم هكذا قال كثير من المفسرين. «وقال قوم بل أمر النبي (ﷺ) أن يواجهوهم بهذا. فعلى هذا زال معنى الدعاء، وبقي معنى التقريع والإغاظة». فإن قيل قد أمرهم بالموت ولم يموتوا. والله تعالى يقول لشيء كن فيكون. والجواب عن ذلك أن الأمر بالأمر لا يكون أمراً مثل قوله عليه السلام في حق الصبيان «مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر»[62] ليس هذا أمراً للصبيان. فعلى (هكذا) يندفع السؤال. ويحتمل أن يكون ذلك أخباراً عن دوام هذه الحالة بهم إلى الموت. فإنها لا تزول إلا بإطفاء نور الإسلام، وهلاك المسلمين. وذلك لا يكون أبداً. والله أعلم بمراده، قوله عزل وجل ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴾[63] الحسنة والسيئة لفظ عام في كل ما يحسن ويسيء. وذكر الحسن، إشارة إلى أن بادي وقوع الخير، تقع المساءة

(62) ـ / السيوطي / الجامع الصغير 462/2 رقم 8174

(63) ـ / آل عمران / 120 / المحرر الوجيز 212/3

بنفوس هؤلاء المبغضين. وذكر السيئة بلفظ الإصابة وهي عبارة عن التمكن، فلا يفرحون إلا بتمكن الأذى من المؤمنين. فعلى هذا المنزع البليغ شدة العداوة. إذ هو حقد لا يذهب عند الشدائد، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين. ولما قدر هذا الحال لهؤلاء المذكورين وأوجبت الآية أن يعتقدهم المؤمنون بهذه الصفة جاء قوله تعالى ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ تسلية للمؤمنين، وتقوية لنفوسهم ﴿والله بما يعملون محيط﴾وعيد. والمعنى محيط جزاؤه وعقابه وبالقدرة والسلطان. قوله عز وجل ﴿ يا أيها الذين امنوا أن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾[64] تحزير منهم، وحض على عصيانهم، ومباعدتهم، وعدم الإصغاء إليهم. وللإعتماد على ما يقولونه قوله عز وجل ﴿ ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة. ويريدون أن تضلوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴾[65] الرؤية ها هنا رؤية القلب. وهي علم بالشيء. قال (قوم) معناه ألم تعلم. وقال آخرون ألم تخبر وهذا كله متقارب. والمراد بالذين اليهود، قاله قتادة وغيره.

ثم اللفظ يتناول معهم النصارى. وقوله تعالى ﴿ إن تضلوا السبيل ﴾ معناه أن تكفروا وقرأ النخعي[66] «وتريدون أن تضلوا السبيل» بالتاء بإثنتين من فوق. قال ابن عطية هذه الآية وما بعدها، تقتضي توبيخ المؤمنين على انتهاء قوم منهم إلى احبار اليهود، في سؤال عن دين، أو موالاة، وما أشبه ذلك. وهكذا بين في ألفاظها، فمن ذلك «ويريدون أن تضلوا السبيل» أي تدعوا الصواب في اجتنابهم وتحسبوهم غير أعداء، والله أعلم بهم. وقوله تعالى ﴿ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً ﴾[67] خبير في ضمنه التحذير منهم. وقوله عز وجل ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين يبتغون عندهم العزة، فإن العزة لله جميعاً، وقد نزل عليكم الكتاب، أن إذا سمعتم آيات

(64) ـ / آل عمران / 149
(65) ـ / النساء/ 44
(66) ـ / ابن عطية / المحرر الوجيز|136/4 .
(67) ـ / النساء 45

الله يكفر بها، ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. إنكم إذاً مثلهم. إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾[68]. البشارة ها هنا مصرح بها بقيدها ولذلك حسن استعمالها في المكروه. ومتى جاءت مطلقة فهي في المحبوب. ثم نص الله تعالى من صفة المنافقين، على أشدها ضرراً على المؤمنين. وهي موالاة الكفار وإطراحهم المؤمنين. ونبه على فساد ذلك، ليدعه من عسى أن يقع (في نوع) منه من المؤمنين، غفلة وجهالة. ثم بين ذلك على جهة التوبيخ مقصدهم في ذلك، هو طلب العزة والاستهتار بهم. أوليس الأمر كذلك. بل العزة كلها لله يؤتيها من يشاء. وقد وعد بها المؤمنين، وجعل العاقبة للمتقين. والعزة أهلها الشدة والقوة. ومنه الأرض العزاز أي الصلبة. ومنه عزني أي غلبني. واستعز المرض إذا قوى. قوله عز وجل (وقد نزل عليكم في الكتاب) مخاطبة لجميع من أظهر الإيمان، من منافق ومحقق، لأن من أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل أوامر الله تعالى. والمراد بالكتاب القرآن. والإشارة إلى هذه الآية أو آية الإنعام، وهي قوله تعالى ﴿ ولا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ نهى الله سبحانه عن مجالستهم. وجعل العلة في ذلك، استهزاءهم بآيات الله تعالى. ففي هذا أدل دليل على تجنب النصارى، إذ لا ينفكون عن الاستهزاء. وفي هذه الآية دليل قوي على تجنب أهل البدع والمعاصي. وأن لا يجالسوا، لأن في مجالستهم رضى بأفعالهم في الظاهر. وسبب في التماد على بدعتهم وضلالتهم. ومن كتاب البيان[69] قال مالك قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لا تصحب فاجراً لكي لا تتعلم من فجوره ولا تفش عليه سرك. وشاور في أمرك الذين يخافون الله تعالى. قوله عز وجل﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾[70] واستعلاء أو عزة أو علو أو رفعة أو غير ذلك. قوله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين

(68) ـ النساء 138 — 140 / ابن عطية / المحرر الوجيز 4/ 284 — 285

(69) ـ / أنظر هامش 57

(70) ـ / النساء 141

أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾[71] (أي حجة) وعذراً مبيناً. يدخل فيه بحكم الظاهر. المنافقون المظهرون الإيمان. ففي اللفظ رفق بهم، وهو المراد بقوله ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ يدخل فيه بحكم الظاهر، لأن التوقيف إنما هو لمن ألم بشيء من الفعل المؤدي إلى هذا الحال. والمؤمنون المخلصون ما ألموا بشيء من ذلك. بل المعنى، يا أيها الذين آمنوا أظهروا الإيمان، والتزموا أوامره، قاله، ابن عطية. قوله عز وجل ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾[72] فيجب على كل من قدر على إزالة منكر من المسلمين، أن يتعاونوا على الإحسان، والبر والصدق، وغير ذلك من أعمال البر. والبر والتقوى، لفظان بمعنى واحد. وكرر اللفظ تأكيداً ومبالغة. إذ كل بر تقوى، وكل تقوى بر. قال ابن عطية وفي هذا تسامح. والعرف في دلالة اللفظين ان البر يتناول الواجب. ثم نهى تعالى عن الإثم، ودخل تحت الوعيد بشدة العذاب. قوله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[73] «نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، في النصرة والخلطة المؤدية إلى الإمتزاج والمعاضدة. حكم هذه الآية بأن في كل من أكثر مخالطة هذين الصنفين، فله حظه من هذا المقت، الذي تضمنه قوله تعالى ﴿ فإنه منهم ﴾» قال ابن أبي الرجال[74] في تفسيره لهذه الآية ثم نهى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى. وأخبره بخبر الصادق، وحديثه (الحق)، إنه من تولاهم فإنه منهم، يجعله معهم، ويسلكه من الفقه

(71) ـ / النساء / 144

(72) ـ / المائدة/ 2

(73) ـ / المائدة /5/126 ابن عطية/ المحرر الوجيز 5/ 126.

(74) ـ / هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي الإشبيلي الأفريقي الأصل ويعرف بابن برجان (أبو الحكم) مقرىء ومفسر ومحدث ومتكلم توفي بمراكش بعد سنة 530 هـ /1136 م ومن آثاره تفسير القرآن لم يكمل وشرح الأسماء الحسنى. ويوجد نسخة من تفسيره في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 242 هـ من سورة الأعراف إلى سورة النور في 388 صحيفة مكتوب عليه تفسير ابن أبي الرجال «برّجان». أنظر / التنبكتي / نيل الابتهاج ص 162 ابن الابار / التكملة 559/2، 560 رضا كحاله / معجم المؤلفين جـ 5 ص 178

مسلكهم وإنهم بذلك ظالمون. والله لا يهدي القوم الظالمين. فجاء في هذا الخطاب الكريم، إن مخوف عند الموت وللمحتضر هتاف ودعاء. يعرضون له ثم قال ويضل الله الظالمين. إنما عند الموت. ويفعل الله ما يشاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. جاء عن بعض العلماء (رضي الله عنا وعنهم) انه سئل عن هؤلاء الأمراء الذين يوالون اليهود والنصارى، ويستعملونهم على المسلمين في عمالاتهم؟ فقال بلغنا ـ والله أعلم ـ انهم لا يموتون على دين الإسلام. مصداق ما قال (رحمة الله علينا وعليه) ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وقد سماهم باسم الظالمين. وقال إنه لا يهديهم أي في تلك الحال انتهى كلام ابن أبي الرجال رضي الله عنه. وسبب نزول[75] هذه الآية «انه لما انقضت غزوة بدر وشجر أمر بني قينقاع أن رسول الله (ﷺ) قتالهم فقام عبد الله بن أبي بن أبي سلول وكان حليفاً لهم وكان لعبادة بن الصامت من حلفهم، مثل ما كان لعبد الله بن أبي. فلما رأى عبادة ما يفعلونه من المشاقة لله ولرسوله. جاء (رضي الله عنه) إلى رسول الله (ﷺ) فقال يا رسول الله، إني ابرأ إلى الله من حلف يهود وولايتهم، ولا أوالي إلا الله ورسوله. وقال عبد الله ابن أبي، «أما أنا فلا أبرأ من ولاية يهود. فإني لا بد لي منهم. إني رجل أخاف الدوائر». وقال بعضهم إذهب إلى فلان النصراني (بالشام) أخذ منه أماناً فنزلت الآية. وقوله تعالى ﴿ فاته منهم الخطاب لعبد الله بن أبي وكل من اتصف بهذه الصفة. ومن موالاتهم ومن تولاهم معتقده ودينه فهو منهم بالكفر، واستحقاق النقمة، والخلود في النار. ومن تولاهم بالعضد والنصرة والتعظيم الظاهر، كالقيام لهم، والخدمة، إلى غير ذلك، مما يوهم التعظيم والموالاة، دون معتقد، فهو منهم في المقت والمذلة والمواقعة عليهم، ويخشى عليه أن يموت على شرملة الاسلام﴾ كما قال بعض العلماء. قوله عز وجل ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتي بالفتح، أو أمر من عنده، فيصبحوا على

(75) ـ / ابن عطية / المحرر الوجيز جـ 5 ص 126

ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾[76] «هذه مخاطبة للنبي (ﷺ) والإشارة إلى عبد الله بن أبي، ومن تبعه من المنافقين على مذهبه، في حماية بني قينقاع. ويدخل في الآية كل من تبعه من مؤمني الخزرج، جهالة وعصبية. فهذا الصنف له حظه من مرض القلب. ويسارعون» فيهم معناه «يسارعون في نصرتهم، وتأنيسهم وتبجيل ذكرهم. وقوله «نخشى أن تصيبنا دائرة» لفظ محفوظ عن عبد الله بن أبي. ولا محالة أنه قال بقوله جماعة من المنافقين». والآية تعطي ذلك. ودائرة بمعنى نازلة وحادثة من الحوادث، تحوجنا إلى اليهود. وتسمى هذه الأمور دوائر على قديم الزمان، من حيث الليل والنهار في دوران. ومنه قوله تعالى ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾[77].

(ومنه) قول الشاعر:

يرد عنك القدر المقدور وتائبة الدهر أن تدورا

وقوله تعالى ﴿ فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ﴾ مخاطبة للنبي (ﷺ) وللمؤمنين ووعدهم، وعسى من الله واجبة. قال ابن عطية[78] «وظاهر الفتح في هذه الآية ظهور النبي (ﷺ) وعلو كلمته. فيبدو الاستغناء عن اليهود». وقوله تعالى ﴿أو أمر من عنده﴾ قال السدي المراد ضرب الجزية. وقوله تعالى (فيصبحوا) أي فيكونوا كذلك طول دهرهم. وقرأ ابن الزبير فيصبح الفساق على ما أسروا في أنفسهم نادمين. قوله عز وجل ﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾[79] تخاطب بين المؤمنين بعضهم لبعض في المنافقين. والمعنى أهؤلاء المقسمون باجتهاد منهم في الإيمان إنهم لمعكم، قد ظهر الآن منهم من موالاة اليهود، وخذل الشريعة ما يكذب إيمانهم. ويحتمل أن يكون قوله ﴿حبطت أعمالهم﴾ على جهة

(76) ـ / المائدة / 52 وتفسيرها من ابن عطية 128/5 بالنص

(77)ـ / التوبة / 98

(78) ـ / المحرر الوجيز / 130/5

(79) ـ / المائدة / 53

الدعاء، إما من الله تعالى عليهم. وإما من المؤمنين. قاله ابن عطية[80].
قلت الدعاء الذي بمعنى الطلب بافتقار وخضوع مستحيل على الله تعالى.
وإنما يؤخذ لازم ذلك، وهو الإرادة. فإن الداعي يريد ما طلبه. والله تعالى مريد لحبط أعمال هؤلاء. قوله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين. يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾[81] المعنى في هذا على ما اختاره ابن **عطية**[*] «إن الله وعد الأمة ان من ارتد منها، فإنه يجيء بقوم ينصرون الدين، ويغنون عن المرتدين». وقيل المراد أبو بكر والصحابة (رضي الله عنهم) وقيل أبو موسى وأصحابه. والآية عامة وقيل علي (رضي الله عنه) مع الخوارج. وقوله ﴿أذلة على المؤمنين﴾ معناه ارقاء رحماء متذللين متواضعين غير متكبرين. ﴿أعزة على الكافرين﴾ أي أشداء غلظاء. وقول العرب عز جانبه وقرأ ابن مسعود[82] ﴿أذلة على المؤمنين﴾ غلظاء على الكافرين. وقال عطاء أذلة على المؤمنين كالولد لوالده، وكالعبد لسيده. أعزة على الكافرين، كالسبع لفريسته. ونظير هذه الآية، أشداء على الكفار. رحماء بينهم. قوله تعالى ﴿ ولا يخافون لومة لائم ﴾ إشارة إلى الرد على المنافقين في أنهم كانوا يعتدون بملامة الأحلاف والمعارف من الكفار، ويراعون أمرهم. وقوله تعالى ﴿ ذلك فضل الله ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أوصافهم الجميلة وتسرهم الأخلاق القبيحة. قوله عز وجل ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾[83] في هذا الحصر بإنما دليل لا يجوز تولي الكفار. ثم وصف الله تعالى المؤمنين بصفات نبه بها على عظيم قدرهم وعلى شرفهم من الطاعة (لله) تعالى بأنفسهم وأموالهم بقوله تعالى ﴿ يقيمون الصلاوات ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ عكس ما وصف به أعداءه. كل هذا تحريض على مجانبة الأعداء، وترغيب في تأليف الأولياء. والخطاب في قوله تعالى ﴿ إنما وليكم

(80) ـ / المحرر الوجيز / 133/5
(81) ـ / المائدة / 54
(*) ـ / المحرر الوجيز 134/5
(82) ـ / المحرر الوجيز 135/5
(83) ـ / المائدة / 55

الله ورسوله﴾ الآية للقوم الذين قيل لهم لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. وقرأ ابن مسعود* إنما مولاكم الله. وقوله تعالى ﴿والذين آمنوا﴾ من آمن من الناس حقيقة الإنفاق، وهم الذين يقيمون الصلواة المفروضة، بجميع شروطها. والزكاة لفظ عام، في الفرض وصدقة التطوع. والكل أفعال البر إذ هي منحية للحساب مطهرة للمرء من دنس الذنوب. وقوله تعالى ﴿ وهم راكعون ﴾ جملة معطوفة على جملة. ومعناها وصفهم بتكثر الصلوات. وخص الركوع بالذكر، لكونه من أعظم أركان الصلاة، وهي هيئة تواضع. قال السدي[84] «هذه الآية في جميع المؤمنين». ولكن علي بن أبي طالب مر به سائل وهو راكع في المسجد، فأعطاه خاتمه وروي في ذلك «أن رسول الله (ﷺ) خرج من بيته وقد نزلت عليه هذه الآية. فوجد مسكيناً فقال له، هل أعطاك أحد شيئاً؟ فقال نعم أعطاني هذا الرجل الذي يصلي، خاتماً من فضة، وأعطانيه وهو راكع. فنظر النبي (ﷺ) فإذا الرجل الذي أشار إليه علي بن أبي طالب. فقال النبي (ﷺ) الله أكبر، وتلك الآية على الناس». ثم أخبر تعالى بها ومن تولى الله ورسوله والمؤمنين فإنه غالب كل من نواه، وجاءت العبارة (عامة) بقوله ﴿ ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾[86] إختصاراً لأن هذا المتولي هو من حزب الله، وحزب الله غالب. وقوله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾[87] نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، ورسمهم لهم برسم بحبل الناس على تجنبهم وذلك إتخاذهم دين المؤمنين هزوا ولعبا. والهزء السخرية والإزدراء. ثم بين الله تعالى جنس هؤلاء أنهم من أهل الكتاب. ومن قرأ بالنصب، أخرج الكفار غير أهل الكتاب من

(*)ـك المحرر الوجيز / 135/5

(84) ـ / المحرر الوجيز / 136/5

(85) ـ / ابن عطية / المحرر الوجيز / 136/5

(86) ـ / المائدة / 56

(87) ـ / المائدة /57

الإستهزاء وادخلهم في النهى عن الموالاة. وعلى قراءة الخفض أدخلهم في الإستهزاء والموالاة فتأمل ذلك تجده حسناً. وفرقت الآية بين الكفار وبين الذين أوتوا الكتاب من حيث الغالب في إسم الكفار. إنه يقع على المشركين وإلا فكلهم كفار. ثم أمر الله تعالى بتقواه هذا النفوس بقوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ مثل قول القائل لولده أطعني إن كنت ابني. قوله عز وجل ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلواة إتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[88] «تبين قبح فعلهم، وسوء قولهم، فإنهم[*] كانوا اذا سمعوا قيام المؤمنين إلى الصلوات قال بعضهم لبعض، قد قاموا صلوا، لا صلوا، ركعوا لا ركعوا. سجدوا، لا سجدوا. وتغامزوا، وتضاحكوا، على طريق الاستهزاء في وقت الآذان غيره وكل ما ذكر من ذلك فإنما هو مثال». وقد (ذكر) السدي[89]، انه كان رجل من النصارى بالمدينة، وكان إذا سمع المؤذن يقول، أشهد أن محمداً رسول الله، يقول حرق الله الكاذب. حتى سقط مصباح في بيته ليلة، فاحترق بيته، واحترق النصراني لعنه الله». وقال آخرون انهم لما سمعوا الآذان حسدوا النبي (ﷺ) والمسلمين على ذلك. فدخلوا على رسول الله (ﷺ) وقالوا يا محمد قد ابتدعت شيئاً لم يسمع به، فيما مضى من الأمم الخالية. فإن كنت تدعي النبوة فقد خلفت فيما أحدثت من هذا الآذان، إن الأنبياء من قبلك ولو كان في هكذا الأمر خير لكان أولى الناس به الأنبياء والرسل قبلك. فمن أين لك صياح كصياح العير. فما أقبح من صوت، وما أسبح من أمر. فنزل قوله تعالى ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين ﴾[90] وكلما ورد عنهم في ذلك نبه العقلاء انهم أعداء يحبون إذاء المسلمين. ويجتهدون فيه بكل ممكن، من قول أو فعل. كما أخبر الله تعالى ووصفهم به في غير ما آية من كتابه. فكيف يتخذون خلصاء، وإخواناً، وأصحاباً، وكتاباً، ومحلاً للمشاورة والنصيحة، مع ما هم عليه من الخصال الذميمة والأوصاف القبيحة. قوله عز وجل ﴿ قل يا أهل الكتاب هل

---

(88) ـ / المائدة / 58

(*) ـ / ابن عطية / المحرر الوجيز 138/5

(89) ـ / ابن عطية / المحرر الوجيز 138/5

(90) ـ / فصلت / 33

تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون ﴾[91] أمر الله تعالى رسوله بأن يقول لأهل الكتاب هل تنقمون منا، معناه هل تعدون علينا ذنباً أو معصية. وهذه الآية من البلاغة الوجيزة. ومثلها قوله تعالى ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾[92] فنظير هذا الاستثناء قول النابغة، (ولا عيب) فيهم غير أن سيوفهم. فيهم فلول من قراع الكتائب ثم وصفهم.. الله بوصف قبيح بقوله تعالى ﴿ ويسعون في الأرض فساداً ﴾[93] ومن كانت هذه صفته حرمت ولايته قال الله «والله لا يحب المفسدين» بين تعالى انه لا يحبهم وانهم مفسدون والسعي[*] العمل وقد يجيء بمعنى ثقل الدم، وعليه حمل بعض أهل العلم آية الجمعة. ومعنى انه لا يحبهم ما يقتضي المحبة أي لا يظهرهم عليهم من أفعاله في الدنيا والآخرة قوله عز وجل ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه. لبيس ما كانوا يفعلون. ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا. لبيس ما قدمت لهم أنفسهم. إن سخط الله عليهم، وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي، وما أنزل إليه، ما اتخذوهم أولياء. ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾[94] ظاهر هذا ان هذه القبائح المذكورة، موجبة لهذا الوعيد العظيم بسخط الله وعقابه بما أعظم وقع هذه الآية في القلوب للمتأملين، لأن يُعمل بمقتضاها لشدة وعيدها. لأنها تضمنت اللعنة والسخط والعذاب (ووصف) فاعل ذلك بالفسق ونفى الإيمان عنه، وهذا لا يبعد. فلقد رأيت بعض المفسرين ذكر عن بعض العلماء ان من استكتبهم يوشك أن يموت على غير ملة الإسلام. لقوله تعالى ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾[95] وغير بعيد أن يكون الأمر على ما ذكر. فإن تقريبهم ذنب عظيم، والذنب يوقع في المهالك. قال الله تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت

---

(91) ـ / المائدة / 59
(92) ـ / البروج / 8
(93) ـ / المائدة / 64
(*) ـ / ابن عطية / المحرر الوجيز 151/5
(94) ـ / المائدة / 78 — 81
(95) ـ / المائدة / 51

أيديكم ﴾[96]، والعجب إن الله سبحانه ذكر في هذه الآية الكفر، وعدم التناهي عن المنكر والعصيان والاعتداء. ولم يكرر شيئاً من ذلك. ذكر موالات الكفار وكررها مرتين تعظيماً لأمرها، وتميزاً لها عن أخواتها في المعاصي. وهذا دليل على أن هذا من أعظم المعاصي، وأقبح الفسوق. وضرره أشد من ضرر الكفر. والآية لا تحتاج إلى تفسير، لظهورها وبيانها. قوله عزل وجل ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾[97] اقتضت هذه الآية الاعراض عن أعداء الله، لأنهم لا ينفكون عن الاستهزاء. وروى انه لما نـزلت هذه الآيـة قال المسلمون، إن كنا كلما استهـزأ المشركون بالقرآن قمنا لهم، لم نستطع أن نجلس في المجلس، أو نطوف بالبيت. فرخص الله تعالى للمؤمنين في القعود معهم. يذكرونهم لهذه الضرورة قوله عز وجل ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾[98] وقوله ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾[99] لا تعارض بين هاتين الآيتين وبين قوله تعالى ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾[100] لأنه قد يتوهم المتوهم التسوية بالأنعام، لأن التشبيه هنا لا يقتضي المماثلة إلا في وصف ما والتشبيه إنما وقع هنا في عدم الفهم، وجعل عدم الانتفاع بالعقل، كعدم العقل في الكلية. بين أن الذين كفروا بشر المخلوقات، ليتأكـد دمهم ولفضل عليهم الكلب العقور، والخنزير من السباع، والخمس الفواسق وغيرهما، وجعلهم في الآية الثانية بثلاثة أوصاف بالكفر، والموافاة عليه، والمعاهدة مع النقض، فقال تعالى ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضـون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴾[101] وهذه الآية وإن كانت في بني قريضة، فهي تعم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة. وقوله تعالى ﴿ وهم لا يتقون ﴾ أي لا يخافون في نقض العهد وكانت بنو قـريضة عاهدوا رسول الله (ﷺ) ثم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه. وأعانوا

---

(96) ـ / الشورى / 30
(97) ـ / الأنعام / 68
(98) ـ / الأنفال / 22
(99) ـ /الأنفال / 55
(100) ـ / الأعراف / 179
(101) ـ / الأنفال / 56

مشركة مكة، على قتال النبي (ﷺ) وأصحابه. وقالوا نسينا وأخطأنا. ثم عاهدهم الثانية، ومالؤا الكفار على رسول الله (ﷺ) يوم الخندق. قوله عز وجل ﴿ فأما تثقفنهم في الحرب ﴾[102] أي تجدنهم وترينهم فيها فشرّد بهم من خلفهم. قال ابن عباس (رضي الله عنه) فنكل بهم من ورائهم.

في هذه الآية دليل أن الذمي إذا نقض عهده، وخالف ما شرط عليه، انه يقتل ويردع به غيره، من أمثاله. وقال عطاء أثخن فيهم القتل، حتى يخافك غيرهم. وقال القتبي[103] سمع بهم من خلقهم. على أن (من) حرف جر من عمل بمثل عملهم «لعلهم يذكرون يتعظون فلا تنقضون العهد. قوله عز وجل ﴿ وأما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾[104] تخافنّ قيل توقنن لهم خيانة وغشاً وغدراً. وقال ابن عطية وهذه الآية عندي فيمن يستقل حالة من سائر الناس غير بني قريضة. لأن بني قريضة لم يكونوا في حد من يخاف عنه. وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشتهرة وخوف الخيانة بأن يبدو الشر من قبل المعاهدين. وتصل عنهم أقوال وتجسس. فتلك المبادىء معلومة، والخيانة التي هي غايتهم مخوفة، لا متقية. فحينئذٍ ينبذ إليهم عهدهم. «على سواء» أي كن وأنت وهم على سواء في إشعال الحرب واعلمهم أنك تحاربهم. واختلف العلماء في الذمي إذا نقض عهده هل يقتل في الحين، أو يرد إلى مأمنه قولان. والسواء قد يكون بمعنى العدل مثل قوله تعالى ﴿ إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾[105].

ومنه قول الراجز:

واضرب وجوه الغـدر لأعداء   حـتى يجيبـك إلى السـواء

وقد يكون بمعنى الوسط مثل قوله تعالى ﴿ فاطلع فرءاه في سواء

(102) ـ / الأنفال / 57

(103) ـ لعله قتيبة بن مهران أبو عبد الرحمن الأصبهاني أحد نحاة الكوفة، أخذ عن الكسائي وصحبه وصار إماماً. السيوطي ،بغية الوعاة 381 .

(104) ـ الأنفال / 58 .

(105) ـ / آل عمران/ 64

الجحيم ﴾[106] قوله عز وجل ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾[107] ذكر الثعلبي في تفسيره[108] عن أبي إسحاق وقال جعل الله المهاجرين والأنصار أهل الآية في الذين دون من سواهم، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، وقال «الا تفعلوه» وهو أن يتولى المؤمنون الكافر دون المؤمنين تكن فتنة في الأرض، وفساد كبير. صدق الله العظيم. فما أشبه وقتنا هذا بهذه الآية كثر بذلك الفساد، وعظم الخطب واشتد، الكرب، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقال ابن عطية في هذه الآية ترغيب، وإقامة للنفوس كما تقول لمن تريد أن تستطيع عدوك مجتهداً فاجتهد أنت سبط هذا الكلام إلى الكفار كلهم يتعاونون وينصرون بعضهم بعضاً وهم أعداؤكم فكونوا أنتم كذلك من إجتماع الكلمة وموالاة بعضكم لبعض. قوله عز وجل ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾[109] تبرأ الله تعالى ورسوله من عهد المشركين الذي كان بينهم وبينه عليه السلام لما نقضوا عهدهم وهذه الآية حكم من الله عز وجل بنقض العهود التي كانت بينه (ﷺ) وبين طوائف المشركين الذين ظهر منهم أو تحسس من جهتهم نقض. ولما كان عهد رسول الله (ﷺ) لازماً لأمته حسن أن يقول عاهدتم قوله عز وجل ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً، ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾[110] ويريد الذين لهم عهد ولم ينقضوا معهود. هذا إذ نقضوا شيئاً مما شرط عليهم انتقض عهدهم قوله عز وجل ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم. وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ﴾[111] فهذه الآية التي قبلها والتقرير كيف يكون لهؤلاء المشركين عهد وهذه صفتهم. وقال

(106) ـ / الصافات / 55

(107) ـ / الأنفال / 73

(108) ـ الكشف والبيان في تفسير القرآن جـ 2 مخطوط بالخزانة الملكية 3350

(109) ـ / التوبة / 1

(110) ـ / التوبة / 4

(111) ـ التوبة / 8 /تفسير ابن عطية مخطوط بالخزانة الملكية مجلد 3 / رقم 7970

الأخفش[112] كيف لا تقتلوهم وهم إن يظهروا عليكم ويظفروا بكم يقتلوكم، ولا يرقبوا فيكم معناه لا يراعوا ولا يحافظوا وأصل الارتقاب بالبصر، ثم قيل لمن حافظ على شيء وراعاه راقبه، ومنه الرقيب والآل القرابة. وقيل الرحم، وقيل الحق، وقرء «ايلا» بياء وبعد الهمزة «وألا» بفتح الهمزة فمن قرأ بالكسر فيحتمل أن يراد به الله تعالى. ومنه قول أبي بكر (رضي الله عنه) لما سمع كلام مسيلمة هذا كلام لم يخرج من ايل أي لم يأت من عند الله. وفي البخاري أيل هو الله، وقوله ولا ذمة أي ولا عهداً. قوله تعالى ﴿ يرضونكم وتأب قلوبهم ﴾ يرضونكم بألسنتهم خلافاً لما في قلوبهم. «وأكثرهم فاسقون» ناكثون ناقضون كافرون. قوله عز وجل ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ﴾ فقوله تعالى لا تبقوا عليهم أيها المؤمنون كما لا يبقون عليكم لو ظفروا بكم. قوله عز وجل ﴿ وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾[113] هذه الآية كلها تؤذن بقبيح سرائر الكفار، وإنهم إنما يشركون أذى المسلمين إذ لم يقدروا عليه. فإذا قدروا عليه نهضوا إليه ولم يراقبوا فيهم قرابة، ولا عهداً، ولا يميناً ولا ميثاقاً بينكم وبينهم. ومما يؤكد ذلك ان أهل ذمتنا في هذا الوقت لما دخل التتر إلى دمشق نابذوا المسلمين وسبوا الأنبياء وسخروا من المسلمين وسبوهم وأهانوهم ونبذوا عهدهم وذمتهم وكان ضررهم على المسلمين من ضرر التتر خذلهم الله فمثل هؤلاء ينبغي أن لا يُؤمِنوا ولا يؤمَنوا. وأدنى الأمر فيهم أن يكونوا تحت الذلة والصغار، كما أمر الله تعالى، فإن أذاهم قد عظم، وشرهم قد كثر. قال ابن عطية[114] ويليق ها هنا ذكر شيء من طعن الذمي في الدين، فالمشهور من مذهب مالك رحمه الله، أنه إذا فعل شيء من ذلك، مثل تكذيب الشريعة، وسب النبي (ﷺ) ونحوه قتل. وقيل إذا كفروا بما هو معهود من معتقده وكفره أوذي على الإعلان وترك. وإذا كفر مما ليس

(112) – . . .

(113) ـ / التوبة / 12

(114) ـ / المحرر الوجيز المجلد الثاني مخطوط في الخزانة الملكية رقمه 7970

من معهود كفره، كالسب ونحوه قتل. واختلف إذا سب النبي (ﷺ) ثم أسلم تقية القتل فالمشهور في المذهب أنه يترك، وقد قال (ﷺ) «الإسلام يجب ما قبله» وفي الفنية[115] انه يقتل، ولا يكون المسلم أسوأ حالاً منه. قوله عز وجل ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ أي رؤساءه وأعيانه الذين يقودون الناس إليه. قوله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾[116] قال ابن عطية[117] ظاهر هذه الآية انها لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة، فالمخاطبة على هذا هي للمؤمنين. الذين كانوا في مكة وغيرها من بلاد العرب. خوطبوا بأن لا يوالوا الآباء والأخوة فيكونوا لهم تبعاً، التبع للآباء وقرىء أن استحبوا بفتح الهمزة للتعليل، في سكنى بلاد الكفر، ولم يذكر الأنبياء في هذه الآية إذ الأغلب من البشر، أن الأبناء هم التبع للآباء وقرىء ان استحبوا بفتح الهمزة للتعليل، وذلك ان المسلم إذا هجر قريبه حاملاً على الإسلام، وإذا خالطه وقربه قارب بقي على حاله. وقد رأيت هذه الآية في الأقرباء والإخوان، نبه الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة أقاربهم، إذا كانوا كفاراً، فكيف بالأجانب. ثم حكم الله تعالى، أن من والاهم، وتبعهم في أغراضهم ظالم. أي واضع الشيء في غير موضعه، وهذا ظلم المغصية لا ظلم الكفر قوله عز وجل ﴿إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[118] تأمل هذه الآية وما انطوت عليه من إشارة الله سبحانه وتعالى ورسوله (ﷺ) إلى ما تهواه النفوس، وتحبه القلوب، من الأقارب، والمساكن، والتجارات، ثم توعد على ذلك بقوله ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ وهذا وعيد عظيم لمن تأمله.

(115) ـ / المحرر الوجيز المجلد الثاني مخطوط في الخزانة الملكية رقمه 7970

(116) ـ التوبة / 23

(117) ـ المحرر الوجيز / مجلد الثاني السالف لذكر

(118) ـ التوبة / 24

فينبغي إيثار طاعة الله تعالى على محبوب. ومن جملة طاعة الله تعالى كف أيدي الكفرين عن أمة محمد (ﷺ) قوله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ان الله عليم حكيم ﴾[119] إختلف المفسرون، هل نجاسة الكافر لأنه جنب أو لا من معنى الشرك نجسه كنجاسة الخمر. قال الحسن[120] البصري من صافح مشركاً فليتوضأ. قال ابن عطية[121]، فمن قال بسبب الجنابة أوجب الغسل على من يسلم من الكفار، ومن قال بالقول الآخر، لم يوجب الغسل. وخص الله تعالى في هذه الآية المشركين والمسجد الحرام. فقاس مالك وغيره جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على المشركين. فقاس سائر المساجد على المسجد الحرام. ومنع من دخول الجميع في جميع المساجد، وبذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله واتبع نهيه في كتابه بهذه الآية. ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾[122] وقال الشافعي هي عامة في الكفار، خاصة في المسجد الحرام. فأباح دخول اليهود والنصارى والوثنيين في سائر المساجد. وحجته ربط امامة[123] بن أثال في المسجد. وقال أبو حنيفة هي خاصة في عبادة الأوثان، وفي المسجد الحرام، فأباح دخول اليهود والنصارى في المسجد الحرام وغيره ودخول عبادة الأوثان في سائر المساجد، وقال عطاء وصف المسجد الحرام ومنع القرب منه ويقتضي منعه من سائر الحرم، وفائدة قوله تعالى ﴿فلا يقربوا المسجد﴾ يقتضي أمر المسلمين بمنعهم. قال ابن عطية[124] وكان المسلمون

(119) ـ التوبة / 28

(120) ـ كان من سادات التابعين، جمع بين العلم والزهد والعبادة. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر (رضي الله عنه) بالمدينة وتوفي بالبصرة سنة 110 هـ / انظر ابن خلكان / وفيات الأعيان 156/2

(121) ـ المحرر الوجيز مجلد الثاني مخطوط الخزانة الملكية 7790

(122) ـ النور / 26

(123) – ...

(124) ـ المحرر الوجيز المجلد الثاني السالف الذكر

لما منع المشركون من الموسم وهم كانوا يحسبون الأطعمة والنجارات، قذف الشيطان في نفوسهم الخوف من الفقر، كما قذف في نفوس الأمراء اليوم، من تضييع الأموال إذا لم يباشرها النصراني، وقالوا من أين نعيش، فوعدهم الله تعالى أن يعينهم من فضله إذا أثر وأرضى الله على ما يعتقدون أنه صلاح حالهم. قال عكرمة[125] أعانهم بإدرار المطر عليهم، وقال غيره وأسلمت العرب بتمادي حجهم ونحرهم. وأغنى الله بفضله بالجهاد والظهور على الأمم. والعيلة الفقر. يقال عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر قال الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغني متى يعيل

قوله عز وجل: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله. ولا يدينون دين الحق، من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[126] إقتضت هذه الآية فقال أهل الكتاب من اليهود والنصارى حتى يسلموا ويؤدوا الجزية. وقوله تعالى ﴿ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ﴾ لا يضيعون ولا يمتثلون ما حرم الله ورسوله. ومنه قول عائشة (رضي الله عنها) ما عقلت أبواي إلا وهما يريدان الجزي الدين. والجزية ما يعطيه المعاهد على عهده، وهي فعلة من جزى يجزي إذا قضى ما عليه. وقوله تعالى «عن يد» يدفعها من يد إلى يد يدفع الله إليه. كما يقال كلمته بما يلم وقال أبو عبيدة[127] ويقال لكل من أعطى شيئاً كرهاً من غير طيب نفس منه إعطاء عن يد. وقال القتبي[128] يقال أعطاه عن يد، وعن ظهر يد، إذا أعطاه مبتدئاً غير متكلف. وقال ابن عباس وأبو عبيدة هو أن

---

(125)...

(126) ـ التوبة / 29

(127) ـ هو عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري الصحابي الجليل، قال فيه الرسول عليه السلام «لكل امة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» مات بطاعون عمواس بأرض الأردن سنة 18 هـ. أنظر ابن عبد البر / الاستيعاب 792/2

(128) . . .

يعطوها بأيديهم يمشون كارهين ولا يجثون بها ركباناً ولا يرسلون بها. قال ابن عطية[129] ويحتمل أن يكون عن نعمة منكم في قبولها منهم وتأمنهم. واليد في اللغة النعمة، ويحتمل أن يريد عن قوة منكم عليهم، وقهر لا تبقى لهم معه رأيه. واليد في كلام العرب القوة يقال قضى ذو يد. ويقال ليس بكذا وكذا يد أي قوة. ويحتمل أن يريد ينقدوها ولا يؤخروها، كما تقول بعته يداً بيد. ويحتمل أن يكون عن استسلام منهم وانقياد على نحو قولهم ألقى فلان بيده، إذا عجز واستسلم. وقوله تعالى ﴿ وهم صاغرون ﴾ لفظ يعم وجوها لا تنحصر، لكثرتها، ذكر منها عن عكرمة أن يكون قابضها جالساً. والرافع من أهل الذمة قائم. وهم صاغرون ذليلون مقهورون. وقال الكلبي[130] هو أنه إذا أعطى الجزية يصفع بقفاه، وقيل إعطاؤه إياها هو الصغار. وقيل إنه لا تقبل فيها رسالة ولا وكالة. وقيل هو أن تجرب عليهم احكام الإسلام، وبالجملة فينبغي إظهار عزة الإسلام. وإذلال أهل الكفر، واما في وقتنا هذه فما أغفلهم عن هذه الآية. المسلمون في وقتنا هذا يعطون النصارى الرشاوى البواطل وهم صاغرون. والكافرون يتكبرون عليهم ويتهددونهم ويخوفونهم. ومنهم لا يؤدي جزية أصلاً، ومنهم من يتعنت بها. فلم يكن لهذه الآية وقع في قلوب أهل زماننا هذا ولا امتثال. هذا الأمر شنيع، وخطب قطيع أكابر أهل الدنيا. في زماننا هذا يداهنون النصارى ويتقربون إليهم. ومنهم من تقبل أيديهم وأرجلهم في الركاب، كل هذا لتمكنهم في الدولة، وخشيتهم، وتقيه قتال شرهم فعلى هذا هو حكم الله تعالى فيهم وقد سمعت ما ذكر الله تعالى في محكم كتابه فيهم وقد قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾[131] يعني أن وبال مكرهم وضرره عائد عليهم فهم في الحقيقة يمكرون بأنفسهم فإن الله سبحانه وتعالى إذا أخذ له أمره، أظهر

(129) ـ المحرر الوجيز السالف لذكر

(130)...

(131) ـ الأنعام / 123

الانتقام منهم. فكأنهم تسببوا في هلاك أنفسهم، فينبغي لهؤلاء الـذين مكنهم الله في الأرض، أن يعتزلوا هؤلاء الكفار وينابذوهم ويذلوهم كما أمرهم الله تعالى رجاء أن يصلح الله شأنهم ويعلي كلمتهم وينصرهم على أعدائهم فإنهم إذا مكنوا أعداء الله يوشك أن يمكن الله منهم أعداءهم، وقد جاء «كما تكونون يولى عليكم». ومن الأمثال السائرة كما تدين تدان، فينبغي للعاقل أن يعتبر بمن خالف أمر الله تعالى من أهل المشرق، كبغداد وبلاد العجم، وكانت لهم قوة وجلد ومال، وعدو فأخذهم الله تعالى، وسلط عليهم العدو، وكل هذا لإظهار المعاصي، ومخالفتهم الأمر، وإنه ليخشى على أقليم ديار أهل مصر بسبب هذا المنكر العظيم، أن يسلط عليهم العدو، والله تعالى يوقظ المسلمين، من هذه الغفلة إنه على كل شيء قدير. قوله عز وجل ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ﴾[132] يريد بإذمارها ودحضها وإذلالها، وكلمة الله هي العليا. قيل يريد لا إله إلاّ الله، وقيل الشرع بأسره، وهذا يقتضي إذلال أهل الكفر، وإعزاز أهل الإسلام وان لا يجعل للذمي كلمة عالية على المسلمين. قوله عز وجل ﴿ وفيكم سمـاعون لهم ﴾[133] هـذه الآية في النهي عن الاستمـاع من المنافقين، ويدخل فيها الكفار كلهم. وجمهور المسلمين، على أن معناه وفيكم مطيعون لهم، سامعون منهم، والله عليم بالظالمين وعيد لهم ولمن كان من المؤمنين على هذه الصفة. قوله عز وجل ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾[134] في هذا كله حظ على منابذة أهل الكفر، ومباعدتهم، وترك الصلاة عليهم، واجتنابهم، وإن كانوا أقارب. ثم قال الله تعالى ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾[135] وقوله تعالى ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ لأن إبراهيم عليه السلام طمع في إسلامه. فحمله ذلك على استغفار له، حتى نهى عنه لما تنبه انه عدو لله. قيل بموت إزر على الكفر. وقيل إنه نهي عنه وهو حي. وهذا كله تحريض على

---

(132) ـ التوبة / 40
(133) ـ التوبة / 47
(134) ـ التوبة / 113
(135) ـ التوبة / 114

معاداة الكفار، وإهمالهم، وترك الاحتفال بهم، وإن كانوا أقارب، ففي تقريب أعداء الله بغي في الأرض. والله تعالى يقول ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم، متاع الحياة الدنيا، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[136] أي ما تنالونه من الفساد والبغي. إنما تتمتعون به في الحياة الدنيا، ثم إلينا مرجعكم. وهذا وعيد لمن تدبره، وتهديد شديد لمن فهمه. قوله عز وجل ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾[137] أي لا تداهنوا أولياء الكفار، ولا ترضوا بأعمالهم فتصيبكم لفح النار. «وما لكم من دون الله» من أولياء ثم لا تنصرون مانع يمنعكم من عذاب الله تعالى قوله عز وجل ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾[138] هذا وعيد لمن خالف أمر الله تعالى. ووعد الله حق صدق أي سلطناً شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكم. وأي عصيان أشد من تسليط النصارى على المسلمين، وتحكمهم فيهم والرضى بأفعالهم، ومعنى دمرناها أخربناها وأهلكنا من فيها. ألم تسمع الجليل جل ذكره يقول لنبيه (ﷺ) ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾[139] يعني ضعف ما يعذب غيرك، في الدنيا والآخرة. هذا الوعيد العظيم لمن يركن للكفار أو يميل إليهم. وهو تسميع للمؤمنين، وتعظيم لهذا الأمر. وانظر إلى الإشارة في قوله تعالى ﴿ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً ﴾[140] أي من اعتزل أعداء الله، لطف الله به، ورفق، وأحسن إليه. إذ المقصود من الخبر الاقتداء والتشبه بأفعال من أثنى الله عليه. كما أن المقصود من خبر الكفار وسوء عاقبتهم، اجتناب ما فعلوه، والمباعدة منه، وتفكر لقوله عز وجل في إبليس لعنه الله ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني، وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾[141] على طريق الإنكار على فعل ذلك. وقد بين

(136) ـ يونس / 23
(137) ـ هود / 113
(138) ـ الأسراء / 161
(139) ـ الاسراء / 74
(140) ـ الكهف / 16
(141) ـ الكهف / 50

الكتاب المقتضى لقبح الموالاة وهو قوله «وهم لكم عدو» يعني أن العدو لا يؤمن شره، ولا مكره. فالنصارى أيدك الله أعداء فدخل متولهم تحت هذا الإنكار لوجود العلة المانعة وضع الأشياء في غير محلها. والعدول عن صيغة المخاطب الحاضر، إلى الغائب في قوله «أفتتخذونه» ثم قال «بئس للظالمين بدلا» دليل على قوة الإنكار. هذا قول علماء البيان. قوله عز وجل ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ قال المفسرون يعني أنصاراً وأعواناً، وهذه الآية فيها تسميع لمن يفعل ذلك، وتقبيح لفعله، وتشنيع عليه، لأن الله تعالى لا يتخذ المضلين ولا الهادين أعواناً. لكن في ذكر هذا تقبيح على متعاطي ذلك، وهذا كقوله عز وجل ﴿ لا تأكلوا الربى أضعافاً مضاعفة ﴾[142] فالربى لا يجوز أكله على كل حال، وإنما ورد هذا مورد التشنيع على فاعل ذلك. وهذا على جهة البحث، ولم أجده منقولاً. وتأمل بعقلك قوله ـ عز وجل ـ في حق إبراهيم عليه السلام ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا. ووهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾[143] ظاهر هذا أن اعتزال الكفار، سبب لهذه النعم كلها ولهذا الثناء الجليل. وقوله تعالى ﴿ وما يعبدون ﴾ من دون الله، يعني أصنامهم، وقوله تعالى ﴿ لسان صدق عليا ﴾ يعني تقاء حسناً رفيعاً، من كل الأديان. فكل أهل دين يتولونهم ويثنون عليهم. فاعلم أن في اعتزال أعداء الله تعالى والتجنب عنهم صلاح الدنيا والآخرة بذلك يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾[144] وتأمل بعقلك ما أخبر الله تعالى عن آدم عليه السلام، إذا أوحى سبحانه إليه يحذره من عدوه بقوله ﴿ يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك. فلا يخرجنك من الجنة فتشقى ﴾[145] حذره إبليس وعلمه انه عدوه فوسوس إليه الشيطان قال ﴿ يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا

(142) ـ آل عمران / 130
(143) ـ / مريم / 50
(144) ـ /هود / 113
(145) ـ / طه / 117.

يبلى ﴾[146] وتمكين العدو إلى أن تمكن من غرضه. بإخراجه من الجنة فكفر فهذا تحذير من الركون إلى الأعداء، وتنبيهاً عن مكائدهم، فينبغي للعاقل أن يحذر عدوه ويخافه، فإنه إذا قربه، ولو حذر منه، تسلط عليه وقوى على إيصال الاذاية إليه. قوله عز وجل ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليـوم الآخر، يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها رضي الله عنهم، ورضـوا عنـه، أولئـك حـزب الله. الا إن حـزب الله هم المفلحون ﴾[147] نفت هذه الآية الإيمان عن متولي الكفار، ومعناه نفي الإيمان الكامل، لأن موالاتهم وإن كانت من أعظم المعاصي، فلا تسلب الإيمان. إلا ما قاله بعض أهل العلم، أن ذلك يكون سبباً في الوفاة على غير الإسلام، نعوذ بالله تعالى من ذلك. قـال ابن عطيـة[148]، ومعنى يوادون أي يكونون بينهم من اللطف، بحيث يود كل واحد منهما صاحبه. وعلى هذا التأويل قال بعض الصحابة لا تجعل لكافر قبلي يداً، فتكون سبباً للمودة. فإنك تقول هذه الآية. ويحتمل أن يكون المعنى لا يوجد من يؤمن بالله والمبعث، يواد من حاد الله، لأجل المحادة لأنه حينئذٍ يواد المحاددة. وذلك يوجب ألا يكون مؤمناً. فعلى هذا يكون نفي الإيمان على حقيقته. قال الثعالبي[149] نزلت هذه الآية في عبد بن عبد الله إبـن أبي، وذلك انه كان جالساً إلى جنب رسول الله (ﷺ) فشرب رسول الله (ﷺ) الماء فقال له فضلة من شرابك يا رسول الله، قال وما تصنع؟ قال أسقها أبي لعل الله أن يطهر قلبه. ففعل فأتى بها أباه فقال ما هذا قال فضلة من شراب رسول الله (ﷺ) فقال أبوه هلا جئتني ببول أبيك فرجع إلى رسول الله (ﷺ) فقال يا رسول الله، إيذن لي في قتل أبي! فقال رسول الله (ﷺ) بل ارفق به، واحسن إليه. وقال ابن جريح[150] حدثت ان أبا قحافة سب

(146) ـ / طه / 120
(147) ـ المجادلة / 22
(148) ـ المحرر الوجيز المجلد الخامس رقم 7803 رقم الصحيفة 214
(149) ـ الكشف والبيان مجلد 5 رقم 3350 الخزانة الملكية.
(150) ـ الكشف والبيان مجلد 5 رقم3350 الخزانة الملكية

النبي (ﷺ) فصكه أبو بكر ولده صكة سقط منها. ثم ذكر للنبي (ﷺ) قال أو فعلته؟ قال نعم. قال فلا تعد إليه. فقال أبو بكر (رضي الله عنه) ولو كان السيف قريباً مني لقتلته، فأنزل الله هذه الآية. وروى مقاتل[151] الهمذاني عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية، ولو كانوا آباءهم يعني أبا عبيدة[152] بن الجراح، قتل أباه يوم أحد. وأبناءهم، يعني أبا بكر دعا ابنه عبد الرحمن، إلى البراز يوم أحد أو إخوانهم، يعني مصعب[153] بن عمير، يوم أحد، أو عشيرتهم يعني عمر قتل أخاه العاصي بن هشام بن المغيرة، يوم بدر. وعلي وحمزة وعبيدة قتلوا عتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر. فأثنى الله عليهم هذا الثناء العظيم، بقوله ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ اثبته فيها. فهي مؤمنة مخلصة ﴿ وأيدهم بروح منه﴾. أي بنصر منه، قال الحسن وقال ابن عطية[154] معناه بهدي ولطف وتوفيق إلهي ينقدح من القرآن، وكلام النبي (ﷺ) وقيل إنذرهم بالقرآن لأنه روح المفلح الفائز ببغيته. فانظر ما اشتملت عليه هذه الآية من التغليظ على والاهم، وحبهم، وتقبيح فعله، ونفي الإيمان عنه، ومن الثناء الجليل، والذكر الجميل، لمن أبغضهم، وعاداهم في الله، وباعدهم، وإن كانوا أقارب وأهله. فهذه الآية نهاية في هذا الباب. وقارعة عن الموالاة لذوي الألباب، أولئك حزب الله. ثم قال ﴿إلا أن حزب الله هم المفلحون﴾ وأتى الجواب عاماً لأنهم يدخلوا فيه أنهم من حزب الله، وإذا كانوا من حزب الله فهم المفلحون. وقوله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم، إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، وابتغاء مرضاتي. تسرون إليهم بالمودة، وأنا أعلم بما أخفيتم، وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾[155] العدو، يقع على الجمع والواحد. ومعنى تلقون إليهم بالمودة أي المودة، والباء زائدة مثل

(151) ـ نفس المصدر السابق
(152) ـ نفس المصدر السابق
(153) ـ نفس المصدر السابق
(154) ـ المحرر الوجيز مجلد 5 ص 214
(155) ـ الممتحنة/١٠

قول القائل أريد أن أذهب، وأريد بأن أذهب، قال الله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد ﴾[156] أي إلحاد. ثم ذكر الله تعالى، السبب المقتضى لعدم جواز توليتهم، وهو كفرهم وإذا عم الرسول والمؤمنين بإخراجهم. وهذه الآية نزلت في شأن حاطب[157] بن أبي بلتعة، لما كتب إلى أهل مكة من كفار قريش، يخبر رسول الله (ﷺ) انه يريد أن يغزوهم. وقصته مشهورة تركناها خشية التطويل بها، والآية عامة في كل من وإلى أعداء الله تعالى، إلى يوم القيامة. قال الثعلبي[158] وفي الكلام تقديم وتأخير. ونظم الآية لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم، إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، وابتغاء مرضاتي، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم، وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل. والضمير في فعله عائد على الإتخاذ المذكور سواء السبيل، وسط طريق شرع الله تعالى. وإنما سمي الوسط سواء، لأنه ساوى نسبة إلى أطراف الشيء وقوله تعالى ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، وابتغاء مرضاتي﴾ يحتمل أن يكون هذا من باب التهييج والتحريض والاعداء على معاداتهم، كما يقول القائل لولده أطعني إن كنت ابني إذا قصد تحريضه على الفعل، والطاعة. ومثله، فاتقوا الله إن كنتم مؤمنين وقد تقدم هذا. قوله عز وجل ﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء، وودوا لو تكفرون. لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم، والله بما تعملون بصير﴾[159] أخبر الله تعالى أن مداراة الكفار غير نافعة في الدنيا، وانها ضارة في الآخرة. لتبين فساد دار مصلحتهم مصانعتهم. ومعنى يثقفوكم يتمكنوا منكم، ويخلصوا في ثقافة. يظهر لكم عداوتهم وتبسط أيديهم بضررهم، وألسنتهم بسبكم، وهذا هو السوء. وأشر من هذا كله، انهم ينقصهم أن تكفروا. وهذا هو ودهم لأن المعنى التي

(156) ـ الحج / 25

(157) ـ ابن عطية / المحرر الوجيز مجلد 5 ص 221 مخطوط

(158) ـ الكشف والبيان مجلد 5 السالف الذكر 3350

(159) ـ الممتحنة / 2، 3

حصلت به العداوة هو الإيمان ولا تزول العداوة إلا به، كما قال تعالى ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾[160] أي لأجل إيمانكم بالله ومثل هذا قوله تعالى ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾[161] ثم أخبر تعالى أن هذه القرابة التي رغبتم في صلتها لن تنفعكم يوم القيامة، والله بما تعملون بصير. وعيد وتحذير. قوله عز وجل ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة، في إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومهم إنا بُرءوا منكم، ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا، حتى تؤمنوا بالله وحده، إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، وما أملك لك من الله من شيء، ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير ﴾[162] حضنا الله تعالى وحرضنا بهذه الآية، على الاقتداء بأبينا إبراهيم الخليل عليه السلام، والذين معه، وفي جعل الاقتداء بهم إسوة حسنة ـ بكسر الهمزة وضمها ـ القدوة والإمام والمثال. واختلف الناس في الذين معه. فقيل من آمن به من الناس. وقال الطبري[163] وغيره، الأنبياء الذين كانوا في عصره، وقريباً من عصره، وتعجب من تعظيم الله تعالى في قلوب هؤلاء المؤمنين، في قولهم لم يكفهم التبرؤ من قولهم، ولا مناكرتهم، حتى أبدوا له العداوة والبغضاء، من أجل كفرهم. وجعلوا غايتها أن يؤمنوا بالله وحده، لا جرم أن الله تعالى أثنى عليهم، هذا الثناء العظيم. وحذر أمة محمد ﷺ عن إتباعهم والاقتداء بهم. وقال تعالى تأكيداً لذلك ﴿ لقد كان لكم فيهم إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ومن يتولى فإن الله هو الغني الحميد ﴾[164] اعراض على من لم يقتد بهم ووعيد وحض على مباعدة الكفار، وإظهار العداوة لهم. فانظر هذه الآية وما انطوت عليه، فهل يسمع أحد في قلبه شيء من الإيمان هذا، حتى يقرب النصارى أو

(160) ـ الممتحنة / 1

(161) ـ البروج / 8

(162) ـ الممتحنة / 4

(163) ـ ابن عطية / المحرر الوجيز مجلد 5 ص 223

(164) ـ الممتحنة / 6

يشاورهم، أو يستكتبهم، أو يوليهم على أهل الإيمان، لا يفعل ذلك بعد سماع هذه الآيات إلا من آمن مكر الله، واستخف بوعيد الله تعالى، وقد ذكر اليهود والنصارى بأقبح ذكر، ووصفهم بأخبر وصف، فقال عز وجل ﴿ أولئك شر البـريئة ﴾ فيجب عـلى كل من آمن بـالله تعالى الإنقيـاد لأحكامه، وإتباع أمره ونهيه. وتقريب من قرب، وإبعاد من أبعد. ولا كلفة في إبعاد النصارى، وعزلهم عن الولاية. والاستخدام. إذ غيرهم من المسلمين، يفعل ما يفعلونه. ولو فعل هذا معهم لأسلم أكثرهم، وحصل القصد منهم، بعد إسلامهم. وقد قامت حجج الله تعالى على موالاتهم، واستكتابهم، أو قربهم، أو ولايتهم على المسلمين، وأعزهم على أهل الدين ﴿فمن بدله بعدما سمعه فإنما اثمه عـلى الذين يبـدلونـه إن الله سميع عليم﴾[166] جعلنا الله وإياكم ممن اتعظ بالقرآن وانقاد للدليل والبرهان. ونابذ أهل الكفر والطغيان. وعمل بمرضاته في السر والإعلان. إنه جواد كريم منان.

(165) ـ البينة / 6

(166) ـ البقرة / 81

الباب الثالث

فيما ورد عن رسول الله (ﷺ) وعن الصحابة، والتابعين، والسلف الصالح، من النهي عن موالاتهم، واعزازهم، وابتدائهم بالسلام، إلى ذلك مما يشهر كله. . ولا بد أن نقدم شيئاً يحسن ذكره قبل ذكر الأحاديث، وذلك أن الله تعالى فرض طاعة رسوله، وقرن طاعته بطاعته في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[167] وقال تعالى ﴿وان تطيعوه تهتدوا﴾[168] وقال تعالى ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[169] وقال تعالى ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[170] وقال تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولـئـك مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولـئك رفيقا﴾[171] فوعد الله سبحانه من أطاعه بجزيل الثواب، وأوعد مخالفه فوبيل العقاب، ووجب امتثال أمره، واجتناب نواهيه. وقال تعالى حكاية عن الكفار ﴿يوم تقلب وجوههم في النار، يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾[172] فتمنوا الطاعة حيث لا ينفعهم التمني. وقال تعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[173] قال محمد بن علي الترمذي الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع لسنته، وترك مخالفته،

(167) ـ النساء / 59
(168) ـ النور / 45
(169) ـ النساء / 80
(170) ـ الحشر / 7
(171) ـ النساء / 69
(172)ـ الأحزاب / 66
(173) الأحزاب / 21

في قول أو فعل. وقال عليه السلام «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله»[174] وقال عليه السلام «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[175] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) انه قال «أحسن الحديث كتاب الله وخير الهدى، هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها»[176] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ من تمسك بسنتي عند فساد أمتي، له أجر مائة شهيد»[177] فإذا ثبت هذا فليرجع الى ما ورد عن سيدنا رسول الله (ﷺ) فيما نحن بصدده. روى هذا الحديث مسلم[178] في صحيحه عن رسول الله (ﷺ) انه لما خرج الى غزوة بدر، تبعه رجل من المشركين فقال «اني أريد أن اتبعك وأصيب معك، فقال تؤمن بالله ورسوله؟ قال لا قال فارجع فلن أستعين بمشرك. ثم لحقه عند الشجرة، ففرح به أصحاب النبي (ﷺ) وكانت له قوة وجلد، فقال جئتك لأتبعك وأصيب معك، قال تؤمن بالله ورسوله؟ قال لا، قال فارجع، فلن أستعين بمشرك، ثم لحقه على ظهر البيداء، فقال له مثل ذلك، فقال تؤمن بالله ورسوله؟ قال نعم، فخرج به». قال الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي[179] (رحمة الله

---

(174) ـ مسند الإمام أحمد جـ 2 ص 93، 244، 52

بخاري في الجهاد / 109 ومسلم في الإمارة 32 والنسائي في البيعة / 27 وابن ماجة في المقدمة / أو الجهاد 39

(175) ـ أحمد 126/4، الدارمي في السنة 5 والترمذي في العلم 16 وابن ماجة في المقدمة 6

(176) ـ ابن ماجة في المقدمة 7

(177) ـ أخرجه الحافظ البيهقي في كتاب المدخل عن أبي هريرة «القائم بستين فساد أمتي له اجر مئة شهيد».

(178) ـ مسلم جهاد 150 هذا معنى الحديث جـ 3 ص 1449

(179) محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان المعروف بالطرطوشي ويعرف بابن ابي رندقة (أبو بكر) فقيه أصولي، محدث مفسر، ولد سنة 451 هـ ونشأ في طرطوشة بالأندلس، توفي بالاسكندرية سنة 520 هـ/1126 م. من تصانيفه:

ـ سراج الملوك، الدعاء، الحوادث والبدع، مختصر تفسير الثعالبي، شرح رسالة ابي زيد. معجم المؤلفين 96/12 ؛ ابن خلكان/وفيات الأعيان 606/1؛ ابن العماد/شذرات الذهب 62/4-64؛ ابو شامة/الباعث على انكار البدع والحوادث ص 15.

عليه) وهذا أصل عظيم في أن لا يستعان بمشرك. هذا وقد خرج، ليقاتل بين يدي النبي (ﷺ) ويريق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين، وقال رسول الله (ﷺ) «لا تستضيئوا بنار أهل المشرك»[180] فسره الحسن بن أبي الحسن فقال معنى لا تستضيئوا بنارهم، لا تستشيروهم في شيء من أموركم. قال الحسن وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا﴾[181] وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (ﷺ) قال «لا تصحب إلا مؤمناً»[182] وقال عليه السلام «من أحب قوما ووالاهم حشر معهم»[183] وروي عن رسول الله (ﷺ) انه قال «المرء مع من أحب»[184] وروي عنه عليه السلام انه قال «أوثق عرى الإيمان الحب في الله. والبغض في الله»[185] هذا ـ والله أعلم ـ انه يجب على المؤمن أن يحب المؤمنين، ويمقت الكافرين، ولا يقربهم، ولا يظهر لهم لطفا ولا ميلا. ويعاملهم معاملة العدو. وأنه يحذره على نفسه وماله فإن الله تعالى حذره منهم، ونهى عن تقريبهم في كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه الصادق (ﷺ) وقال (ﷺ) «ثلاث من كن فيه فقد ذاق طعم الإيمان، من لم يكن شيء أحب إليه من الله ورسوله، وأن يحرق بالنار أحب إليه من أن يرتد عن دينه. ومن أحب الله وأبغض لله[186]». وعن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله (رضي الله عنهما) دخل لفظ أحدهما في الآخر لو أن عبداً صف بين قدميه عند الركن والمقام يعبد الله تعالى عمره، يصوم نهاره، ويقوم ليله ثم لقي الله تعالى يوم يلقاه، وليس في قلبه محبة وموالاة لأولياء الله، ولا بغض ومعاداة لأعداء الله، لما نفعه ذلك شيئاً. وعن مجاهد عن ابن عباس انه قال من عادى في الله وقال في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك.

---

(180)المحرر الوجيز 207/3.

(181) ـ / آل عمران/ 118.

(182) ـ السيوطي الجامع الصغير 636/2

(183) ـ السيوطي / الجامع الصغير 478/2

(184) ـ البخاري في الأدب 96 ومسلم في البر 165 والترمذي في الزهد 50 والدعوات 98.

(185) ـ السيوطي / الجامع الصغير 373/1 رقم 2778

(186)البخاري في الإيمان 8 ومسلم في الإيمان 69

ولا يجد رجل طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه، حتى يكون كذلك. وعن عمر وغيره ان أحدهم ليشب في الإسلام، ولم يوال في الله، ولم يعاد فيه عدوا، وذلك نقص كبير. وقد قال الله تعالى ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾[187] وقال تعالى ﴿أشداء على الكفار، رحماء بينهم﴾[188] قال الشيخ الإمام العالم العامل، شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة، أبو طالب حكى في «قوة القلوب» وعندي من عزائم الدين، وسبيل الورعين أن تبغض إلى أعداء الله، وتمقت إليهم ليبغضوك، ويمقتوك، فيكون لك من القرابة كحب أوليائه لك، وحبك لهم. فهذا من أسباب ولاية الله تعالى. قال وقد نفى الله الإيمان. فمن أحب من حادده وأثبت الإيمان والتأييد بروحه، لمن أبغض أعداءه فقال عز وجل ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولـئك في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئـك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون﴾[189] وذكر البيهقي[190] عن ملك بن معول قال قال عيسى بن مريم تحبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم، والتمسوا مرضاته بسخطهم. وقيل لبعض التابعين، ألا تدخل على فلان؟ قال أكره أن أدخل عليه فيدثيني مجلسي، فأحبه فأكون قد أحببت من يبغضه الله، أو أحشر يوم القيامة معه لمودتي له. ولقد قال رسول الله (ﷺ) «لا تسلموا على اليهود النصارى وإذا لقيتموهم فاضطروهم الى ضيقة»[191] وقال عليه السلام «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى ضيقة» قال بعض العلماء في معنى هذا لأن الكافر ليس بأهل للإكرام، بل للإذلال، والهوان. وهذا كله فيه تحذير، وحض على عدم الالفة بيننا وبينهم، فإن إفشاء السلام والبراية له يقتضي الإلفة والمحبة، والذي يدلك على ذلك قول رسول الله (ﷺ) «افشوا السلام[192] بينكم»

(187) ـ المائدة / 54

(188) ـ الفتح / 29 .

(189) ـ المجادلة / 22

(190)...

(191) ـ لم أقف عليه

(192) ـ السيوطي في الجامع الصغير 159/1

وقد نهينا عن السلام عليهم الذي هو سبب الإلفة. فالنهي عن الصحبة والإلفة بطريق الأولى. وروى الحافظ أبو عبد الله بن حبان[193] يرفعه إلى أنس قال قال رسول الله ﷺ «لا تساكنوا المشركين، ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم فهو مثلهم» يحتمل أن يكون ذلك اشارة الى السكنى والاجتماع بالقلوب، ويحتمل أن يريد بالأجساد. وهذا كله فيه حض على عدم التلاق معهم ومخالطتهم. قلت ومصداق هذا في كتاب الله تعالى ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب ان اذا سمعتم آية الله يكفر بها، ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم اذا مثلهم﴾[194] يجعل جلوسهم معهم حالة الاستهزاء موجب لماثلتهم لهم. فالنصارى واليهود لا ينفكون عن الاستهزاء لأن نياتهم عليه انطوت. وقد قال تعالى ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾[195] فينبغي للعاقل النفور من أعداء الله تعالى، ومباعدتهم والإعراض عنهم، وامتثالاً لأمر الله تعالى فيهم وحذرا من حلول سخط الله تعالى عليه. وقد قال تعالى ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾[196] وروي عن رسول الله (ﷺ) انه قال «من صافح مشركاً فليتوضأ أو ليغسل كفه»[197] وقال الحسن البصري رحمه الله من صافح مشركاً توضأ. وروي عن هشام بن [198] عروة عن أبيه عن جده «قال استقبل رسول الله ﷺ جبريل فناوله بيديه فأبا أن يتناولها فقال له يا جبريل ما منعك أن تأخذ بيدي فقال انك أخذتها بيد يهود فكره ان تمس يدي يدا قد مستها يد كافر. فدعا رسول الله (ﷺ) بماء فتوضأ فناوله يده فتناولها». وجاء في التفسير، لقوله تعالى ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾[199] معناه لا يمالئون أهل الشرك على شركهم ولا يخالطونهم. وهذا كله تأكيد لمجانبتهم،

(193) ـ أنظر الترمذي في السير 41 وابن ماجة في المقدمة 2

(194) ـ النساء / 140

(195) ـ المائدة 57.

(196) ـ المائدة 51

(197) ـ لم أقف عليه.

(198) ـ هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام. ولد سنة 61 هـ ومات سنة 146 هـ
روى عن ابيه وعمه عبد الله بن الزبير / أنظر ابن حجر / تهذيب التهذيب 48/11

(199) ـ الفرقان 72.

وأمر بمباعدتهم. ونهى عن تقريبهم، وموالاتهم، وكفى بهذا تحذيرا. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أهل الذمة سموهم ولا تكنوهم، وأذوهم ولا تظلموهم. وقال (رضي الله عنه) لا تكرموهم اذا أهانهم الله، ولا تأمنوهم اذا خاذلهم الله، ولا تدنوهم اذا أقصاهم الله. وكتب (رضي الله‌عنه) لولا تكاتبوا أهل الذمة فتجري فيما بينكم وبينهم المودة، ولا تكنوهم، وأذلوهم، ولا تظلموهم. وعنه (رضي الله عنه) لا تستعملوا اليهود والنصارى فإنهم أهل رشى في دينهم، ولا يحد الرشا. وذكر شريك[200] عن أبي هلال عن أنس قال كنت عبدا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، «وكنت نصرانياً فأرادني على الاسلام، فأبيت قال لا اكراه في الدين»[201] ثم قال ان أسلمت استعنت بك على أمانتي. وقال أمانة المسلمين، فانه لا يحل لي أن استعينك على أمانتهم وأنت على غير دينهم، فلما أحضر أعتقني، وقال اذهب حيث شئت. وليت شعري في هذا كفاية، وليت شعري أي شيء أغفل أولى الأمر حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وسنة نبيه (ﷺ) وأقوال الصحابة، والتابعين، وسلكوا هذا المسلك الذميم. وفعلوا هذا الفعل القبيح، من تقريب أعداء الله تعالى واعزازهم على المسلمين، وتحكيمهم على سنة رسول الله (ﷺ) وتعظيمهم، والقيام لهم وامتثال أوامرهم مع ما هم عليه من الخصال الذميمة، والطرائف القبيحة، وبغض أهل الاسلام، ومعاداة سيد الأنام، فلو أنهم يعطون لأرباب الدولة في كل يوم وزن احد من مال ما استحقوا أن يعاملوا. فهذه المعاملة يمكنون من المسلمين، يضربونهم، ويسبونهم، ويفعلون معهم كل ما أرادوه من السوء. ما أشنع هذه البشرة في هذه الديار، وما أقبح سمعة في هذه الفضيحة في سائر الأقطار، ولقد رأيت لبعض المقاربة شعرا يهجو به الديار المصرية وأهلها فمعظم ما فيه ان

(200) ـ أنظر/ ابن عبد البر/ الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ 2/ 704 حيث يوجد أكثر من شريعة، وابن حجر، لعله شريك بن عبد الله النخعي، أبو عبد الكوفي ولد سنة 90 هـ وتوفي سنة 177 هـ، روى عن خلق كثير. . تهذيب التهذيب جـ 4 ص 332.

(201) ـ البقرة 256

(202) -...

النصراني أكثر حرمة من الأشراف ذرية رسول الله (ﷺ) فقد نقضت حرمتها عند الملوك لهذا الأمر القبيح، يركب أعداء الله الخيل المسومة، ويجلسون في صدور المجالس، والمسلمون قيام بين أيديهم، ويركب بعضهم في الليل، ويمر على جامع عمرو بن العاص والناموس. بين والناس في ركابه على رؤوس المسلمين، لا يقدر أحد على الإنكار عليه. هذا مع ما يفعلونه من أخذ أموال العامة مصانعة، وأموال الأمراء خيانة، ويضرب من أرادوا ضربه من المسلمين، ويفتخرون بسرقة الأموال، وسيرها في الحساب، لقد خاب وخسر من استخارهم وذهب من ائتمنهم وتجد الأمير يرجع الى قوله في المسلمين مع عماله، فانه عدوهم، ولا يعول في الحساب إلا على ما يقوله، فتجد العاملين والفلاحين يحلون اليه الهدايا والأموال، فيرد عنهم الحقوق، ومن لم يعطه شيئاً ألزمه بالباطل، ويحرض عليه. والأمر هذا ما لا يخفى على أحد من أمرهم، ويفسقون بحرم المسلمين، ويلعنون بذلك. ولقد أخبرني بعض عدول المسلمين عن الموثقين بدينهم واخبارهم، أن نصرانياً بعث إلى امرأة من المسلمين يراودها عن نفسها فامتنعت. فبعث إلى زوجها، وزعم ان في جهته مالاً خرجه في الحساب، وأمر به إلى السجن، ولم يزل محبوساً إلى أن بعث النصراني إلى زوجته، إن لم توافقه على ما طلبه منها تركه في السجن، وألزمه بالمال. فطاوعته المرأة خشية منه وتقية من شره. ولم أذكر هذا إلا على سبيل الاشتراط ولو سلكت أذكر ما يفعلونه لضاقت المجلدات عن وسعه، ولتعذر عليّ كمال وضعه. فقبحهم الله من طائفة لقد تمكنوا في هذه البلاد تمكناً، وأهانوا أهل الإسلام إهانة عظيمة، والأمراء عما يفعله أعداء الله بالمسلمين غافلون فاستخدامهم مفسدة في الدنيا والآخرة. وقد ورد النهي عن مخالطة أهل البدع والفساق، فكيف بالكفار اعداء الله تعالى، روي عن رسول الله (ﷺ) انه قال «من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام»[203]. هذا فيمن يوقره، فكيف بمن يسلط الكفرة على إهانة المسلمين، ويسلبهم ثوب العز فقد استهان والله بحرمة الإسلام، وأذى أمة محمد عليه السلام،

(203) ـ السيوطي الجامع الصغير 563/2 رقم 9082.

وأصغى للكفرة اللئام. وعن الحسن رضي الله عنه، لا تمكن أذنيك من صاحب هوى، فيمرض قلبك وقال بعض العلماء لا تمكن رابع القلب من أذنك. وضرب بعضهم لذلك مثلا أرأيت لو أن أحدهم قعد إلى سارق، في كمه مال. أما كان يحرز منه أن يغتاله فيه. فدينكم أولى بأن تحرزوه، وعن يحيى[204] بن أبي كثير إذا رأيت صاحب بدعة فخذ في طريق أخرى، وعن أبي حازم قال لأن يكون لي عدو صالح أحب إليّ، من أن يكون لي صديق فاسق. فيجب على كل مسلم بغض أعداء الله ومنابذتهم. ويجب على أولئك الأمراء رفع أيديهم عن المسلمين، واذلالهم وإلزامهم الشرائط المشترطة عليهم المآخذين فيها في عهدهم، وسيأتي بعد هذا صفة العهد المأخوذ عليهم وفي اهمال ذلك ضرر كبير، وفساد عظيم. قال مكحول[205] إياك ورفيق السوء فإن الشر للشر خلف، وقال يحيى[206] بن معاذ، لا ترجو نصيحة من خان نفسه ولا تجلس مع من تحتاج أن تجالسه بالتوقي وقد قال تعالى ﴿الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين﴾[207] وقال تعالى في ذم مخالطة قرناء السوء ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾[208] فندم حيث لم ينفعه الندم، وزلت به حينئذ القدم. وقد قال تعالى ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس أنهم كانوا خاسرين﴾[209] وقال رسول

(204) ـ يحيى بن ابي كثير الطائي مات سنة 129 أو 132 / أنظر ابن حجر / تهذيب التهذيب.

(205) ـ هو ابو عبد الله ويقال ابو أيوب ويقال أبو مسلم الفقيه الدمشقي روى عن النبي مرسلاً. توفي سنة 118 هـ أو 112 هـ أنظر / ابن حجر / تهذيب التهذيب 289/10 ابن خلكان / وفيات الأعيان 280/5 أبو عبد الله ويقال أبو مسلم الفقيه الدمشقي، ذكره ابن سعد في الطبقة الثالثة من تابعي أهل الشام يقال بأنه توفي سنة 118 هـ وقيل 112 هـ

(206) ـ هو أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الواعظ الرازي (رضي الله عنه) أقام ببلخ مدة ثم عاد إلى نيسابور ومات بها سنة 258 أنظر / الشعراني / الطبقات الكبرى جـ 1، ص 69.

(207) ـ الزخرف / 67

(208) ـ الفرقان / 27

(209) فصلت / 25

الله ﷺ «انما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك إما أن يحذ بك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[210] فينبغي تجنب خلطاء السوء حسبا أمكن، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لا تصحب أخا الشر، وإياك وإياه، فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه. وعن الأوزاعي[211] رحمه الله قال، الرفيق بمنزلة الرقعة في الثوب، ان لم تشابهه شانته. وقال بعض الحكماء، لا تصحب الأشرار فإن طبعك يسرق من طبعهم، وانت لا تشعر.

وقال الشاعر:

عن المرء لا تسأل واسأل قرينه   فكل قرين بالمقارن مقتد

والأخبار في ذلك كثيرة، واقتصرنا على هذا خشية التطويل. وفي بعض هذا كفاية وانما أوردنا هذا لتعلم اهتمام صاحب الشرع بهذا الأمر، وان في اهماله ضرراً على المسلمين، وفسادا عظيما. وبالجملة فتقول اذاً استكتابهم واستخدامهم سبب في الاستعلاء على المسلمين، واهانتهم. لا نعلم خلافا في تحريم استكتابهم، والحالة هذه لأن ذلك وسيلة الى المحرم، والوسيلة إلى المحرمة المحرم، وقد قامت الحجج على من خالف الأوامر، وتحقق الوعيد على من والاهم خشية الدوائر، وليس من العجب ممن وقف على هذا الكتاب وعلم ما فيه ونابذ أعداء الله ومقتهم وأهانهم وأبعدهم وعزلهم وطردهم وراءهم أخس من الخنافس كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله ﴿ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾[212]

(210) ـ البخاري في الذبائح 38 وفي البدع 38 ومسلم في باب البر 146 وأبو داوود في الأدب 16 وأحمد في جـ 4 ص 404، 405، 408

(211) ـ هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي الدمشقي (أبو عمرو) من الفقهاء المحدثين ولد ببغداد سنة 88 هـ / 707م وأقام بدمشق ثم تحول إلى بيروت إلى أن توفي سنة 157 هـ / 774م وومن مؤلفاته، كتاب السنن في الفقه والمسائل في الفقه معجم. المؤلفين 163/5 ابن النديم / الفهرست 227/1 ابن كثير / البداية والنهاية 115/10

(212) ـ الأنفال / 27

ولكن العجب ممن وقف عليه فلم يرجع عما هو عليه من سوء الحال، وقبح الأفعال فسبيله سبيل المشاقق والمعاقب المعرض عن ذكر الله تعالى والمؤثر لهواه، على رضى مولاه، فينبغي الأعراض عن هذا بعين الاحتقار، كما قال الله تعالى ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا﴾[213] فمثل هذا يخاف عليه حلول غضب الله تعالى، وشدة انتقامه، ونزول سخطه وبلائه. أيقظنا الله تعالى من الغفلة، وجنبنا ما يورثنا المقت والذلة، وجعلنا ممن أعزهم وأعزبهم الدين وأغلظ بهم على الكافرين، انه ولي الخيرات، ومجيب الدعوات. ومفرج الكربات وقاضي الحاجات. وهو حسبنا ونعم الوكيل. وصلى الله عليه سيدنا محمد وآله.

(213) النجم / 29.

الباب الرابع

في صفة العهد المأخوذ عليهم وذكر شيء من أحكامهم، وترك الاستعانة بهم روى أبو داوود ان النبي (ﷺ) صالح أهل نجران على ألف حلة النصف في صفر، والنصف في رجب، يؤدونها الى المسلمين وعارية ثلاثين ذرعا وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها. والمسلمون ضامنون لها، حتى يردوها عليهم، على أن لا تهدم لهم، ولا يخرج لهم قس ولا يفتنون عن دينهم، ما لم يحدثوا حدثا، ويأكلون[214] الربا. وروى عبد الرحمان[215] بن غنم قال كتب إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من نصارى مدينة كذا أنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا، وذرارنا، وأموالنا، وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا تحدث في مدائننا وفيها حولها ديراً ولا كنسية ولا قلية ولا صومعة راهب. ولا نجدد ما خرب منها، ولا ما كان منها في خطط المسلمين في ليلة أو نهار وان نوسع أبوابها للمارة، وابن السبيل، وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا، ولا في منازلنا جاسوسا، ولا نكتم غشا للمسلمين. ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا، ولا ندعو إليه احدا. ولا نسع أحداً من

---

(214) ـ أبو داوود باب الامارة 30

(215) ـ محمد بن عبد الكريم المقيلي / فيما يجب مع المسلمين من اجتناب الكفار ص 11 فيما رواه ابن حبان وغيره

ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام، إن أرادوا. وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا، اذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم، من قلنسوة ولا عمامة. ولا تعليب ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نتكنى بكناهم ولا نركب بالسروج، ولا نتقلد بالسيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا. ولا ننقش على خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر، وان نجز مقادم رؤوسنا نلزم زينا حيث ما كنا. وان نشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرف المسلمين وأسواقهم ولا نضرب ناقوسا في كتائبنا، إلّا ضرباً خفيفاً، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين. ولا نخرج سمعاننا ولا طاغوتنا ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر الميزان في شيء من طرف ولا أسوامهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نطلع على منازلهم. فلما أتيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدا من المسلمين. شرطنا ذلك على أنفسنا، وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان. وان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم، وضمناه على أنفسنا، فلا ذمة لنا. وقد حل منا ما حل من أهل المعاندة والشقاق. فكتب اليه عمر رضي الله عنه أمضي ما سألوه، والحق فيه حرفين، اشترطهما عليهم مع ما شرطوه على أنفسهم، ان لا يشتروا شيئاً من سبايا المسلمين، ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده. وروى عن سالم[216] مولى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه، أن عمر كتب إلى أهل الشام في النصارى أن نقطع ركبهم، وأن يركبوا على الأكف، وأن يركبوا في شق واحد، معناه أن تكون رجلاه من ناحية واحدة، وان يلبسوا خلاف زي المسلمين، وأن لا يباح لهم الركوب الا في المواضع البعيدة، والطرق الخالية. فأما في أسواق المسلمين، وداخل

(216) ـ لعله سالم بن معقل مولى ابي حذيفة / هاجر مع عمر بن الخطاب مع نفر من الصحابة وكان يؤمهم، وكان عمر يفرط في الثناء عليه توفي سنة 12 هـ قال رسول الله خذوا القرآن من أربعة: «من أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة، وابن مسعود» أنظر / ابن عبد البر / الاستيعاب 567/2

البلد حيث يتضرر المسلمون بركوبهم، إلا إن كان شيخاً مضطراً إلى الركوب من زمانة أو ضعف، فينبغي أن يباح له ذلك. فهذا هو العهد الذي أخذه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن النصارى. وفي بعض طرقه وأن نكشف وجوه موتانا. وفي بعضها ولا يوجد في بيت أحد منا سلاح إلا أشهب، وفي بعضها وأن لا يشارك أحد منا مسلما إلا أن يكون للمسلم أمر التجارة. قال ابن حزم[217] في مراتب الإجماع، اختلف العلماء في نقض عهد الذمي، وقتله، وسبى أهله، وماله، اذا أخل بواحدة مما نذكره. وهو اعطاء أربعة مثاقيل ذهبا في انقضاء كل عام قمري صرف كل دينار اثنا عشر درهما، وان لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا ديراً ولا صومعة ولا يجددوا ما خرب منها، ولا يمنعوا وقد أوجب الله تعالى على أمير المؤمنين من تعظيم الدين وحياطته وصيانته، وإحياء كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام واعزاز الدين، والملة، أن لا يستعان بأحد من أهل الذمة في شيء من أمور المسلمين وأموالهم، وتدبير خراجهم في دواوين العامة والخاصة، بالحضرة والنواحي. ويخرج به الكتاب إلى جميع العامة والخاصة في النواحي، ليمتثلوا ويقفوا عنده. فمن خالف الأمر انزل به ما يتعظ به سواه. من تكبد أمر المؤمنين ما لا صلاح له بعده. ولا قبل له به من اتلاف مهجته. واختصرنا في هذا التوقيع خشية التطويل فلله درك فلقد أبقى له ذكرا جميلا، ونصح لله ورسوله، وأبعد أعداء الله ورسوله كما أمر.

(217) ـ محمد عبد الكريم المقيلي / رسالة فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار ص 12

الباب الخامس

في صفة من يستحق العمل والكتابة للمسلمين. قال الله تعالى ﴿يا داوود انا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق. ولا تتبع الهوى، فيضلك عن سبيل الله﴾[218] وقال تعالى ﴿الذين ان مكناهم في الأرض، أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[219] اشارة إلى أن المطلوب من العباد ما أمروا به ليس لهم خروج عنه، قال الشيخ أبو[220] بكر الطرطوشي فضمن الله تعالى للملوك النصر. وشرط عليهم أربع شرائط كما ترى. متى تضعضعت قواعدهم، وانتقض عليهم شيء من أطراف مملكتهم، أو ظهر عليهم عدو فليلجأوا إلى الله تعالى، ويستجيروا من سوء الأقدار، بإصلاح ما بينهم وبينه تعالى، بإقامة القسط الذي شرعه الله تعالى لعباده، وركوب العدل، والحق الذي قامت به السماوات والأرض، واظهار شرائع الدين، ونصرة المظلوم، والأخذ على يد الظالم، فإذا علم انه قد اخل في شيء من هؤلاء الشرائط الذي شرطت في النصر في قوله تعالى ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾[221] وقال رسول الله (ﷺ) «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل

(218) ـ ص / 26

(219) ـ الحج / 41

(220) ـ سبق ذكره ص 45

(221) ـ الحج 40

راع على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا وكلكم راع ومسؤول عن رعيته»[222] وقال عليه السلام «ان المقسطين لله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه. يمين الذين يعدلون في حكمهم، وأهلهم وما ولوا عليه»[223] فانظر أيدك الله هل أحسن الرعاية من ولي على رقاب الناس المسلمين أعداء الله ورسوله يتحكمون فيهم، ويغيرون عليهم، ويعلوا على المسلمين، فمن عظم اليهود والنصارى وولاهم على شيء من أمور المسلمين، فسبيله سبيل المنتصب لمخالفة أحكام الله في كتابه الذي أنزله، وكلام الرسول الذي أرسله، وأخبار الصحابة والأئمة والعلماء وصالحيها. قوله تعالى ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾[224] وقال عليه السلام «من شق على أمتي فاشفق اللهم عليه»[225] وأي مشقة أشد من تولية عدو الله وعدو رسوله وعدو المسلم الذي لا يخاف الله فيه، ولا يراقبه بل يعتقد في دينه انه باذيته مأمور. قال العلماء لا يجوز أن يتخذ أحد من اليهود ولا النصارى كتابا ولا عمالا على المسلمين أبدا، كتب بعض العمال الى سيدنا عمر بن الخطاب ان العدو قد كثر، وان الخونة قد كثروا فنستعين بالأعاجم فكتب عمر إليه أنهم أعداء الله ورسوله. وانهم لنا غششة، فأنزلوهم حيث أنزلهم الله ولا تردوا إليهم شيئاً. وقال عمران[226] ابن أسد، أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) الى محمد بن المبشر[227] أما بعد، فإنه بلغني ان في عمالك رجلا يقال له حسان على غير دين الإسلام، والله تعالى يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا، من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين﴾[228] فإذا أتاك كتابي هذا فادع حسان إلى الإسلام فإن أسلم فهو منا، ونحن منه، وإن أبى فلا نستعمله أبداً، وأبعده ولا

(222) ـ البخاري في الجمعة 11 والجنائز 32 والاستقراض20 والوصايا 9 والعتق17 والنكاح 81 والأحكام 1 / ومسلم في الامارة 20 / وأبو داوود في الامارة 1 والترمذي في الجهاز 27 / وأحمد في جـ 2 ص 54,5.

(223) ـ السيوطي / الجامع الكبير جـ 1 ص 374 مخطوط في الخزانة الملكية رقمه 3872

(224) ـ الطلاق 1

(225) ـ لم أقف عليه

(226) ـ لم أقف عليه

(227) ـ لم أقف عليه.

(228) ـ المائدة / 57

تستعمل غير أهل الإسلام على شيء من أعمال المسلمين والسلام. فلما قرأ الكتاب أرسل خلف حسان وقرأه عليه فأسلم، وحسن اسلامه. وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عماله أن لا تولوا على عملنا إلا أهل القرآن. فكتبوا إليه أنا وجدنا فيهم خيانة. فكتب إليهم، أن لم يكن في أهل القرآن خيراً كفى، حذرا ألا يكون في أعداء الله ورسوله خيرا أبدا. قال الله تعالى ﴿أولئك هم شر البرية﴾[229] وقال تعالى ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين﴾[230] وضرب لك مثلا هو أن ولي أمرك، أرسل إليك كتابه يتضمن أن فلانا عدوي فلا تقربه ولا تستخدمه ونابذه، أظهر له العداوة وأذله وأصغره، وإن لم تفعل ذلك عاقبتك وعزلتك وسلبت نعمتك، ففهمت معنى الكتاب، ثم عمدت إلى ذلك الرجل فقربته منك وشاورته في أمرك وسلمت اليه مالك، ووليته على رعيتك، أكنت تستحق العقوبة من ولي أمرك أم لا فاليهود والنصارى أعداء الله، وأعداء رسوله، وقد أنزل الله كتابه لك بذلك، وقال فيه ما علمته من تحريم ولايتهم، وتقريبهم واستكتابهم، وولايتهم على المسلمين الى غير ذلك. فالبدار البدار قبل تدور العقاب، وخراب الديار فإن اعتذر من أرباب الدولة معتذر وقال قد فهمت الصواب، وفصل الخطاب لأن الضرورات تبيح المحظورات، ولولا ضرورتها لما قربناهم، ولكن الحاجة داعية إليهم لأمانتهم واستكتابهم فهذا رجل حلت به بلواه، وباع آخرته بدنياه، وأضله الله على علم وجعل إلهه هواه، واستهان بما عظمه الله، وقرب من أبعده الله. وولى أعداء الله ورسوله لأجل شيء يسير، وغرض حقير، خالف لأجله أمر إلهه، وأغراه أعداء الله على أوليائه فأخيف عليه الوعيد في قوله تعالى ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾[231] ومع هذا فليس الأمر على ما يزعمه. ولا الخطاب على ما توهمه. بل هو على ضد ما ذكره، والنقيض مما حرره، ولما

(229) ـ البينة / 6

(230) ـ المجادلة / 20

(231) ـ البقرة / 86

أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب، كاتب الحجاج يزيد بن أبي مسلم قال له عمر بن عبد العزيز أسألك بالله يا أمير المؤمنين، أن لا تحيي ذكر الحجاج باستكتابه إياه، فقال يا أبا حفص اني لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهم. فقال له عمر بن عبد العزيز، أنا أوجد لك من هو أعف منه في الدينار والدرهم. قال من هو؟ قال ابليس ما مس ديناراً ولا درهما. وقد أهلك غالب خلق الله تعالى. وهذا المثال حسن في اليهود والنصارى، لأنهم بابليس أشبه، وله أنسب، فافهم بعقلك في صفات من ينبغي أن يكون كاتبا. كان يحيى بن خالد يقول لولده لا بد لكم من كاتب فاستعينوا بالأشراف، واياكم وسفلة الناس فإن النعمة على الأشراف أبقى، وهي بكم أحسن، والمعروف عندهم أشهر، والشكر منهم أكثر، والدنيا دول، والمال عارية. ولنا بمن قبلنا أسوة. وفينا لمن بعدنا عبرة قال بعضهم لعن اليهود والنصارى لأنهم نالوا بكيدهم لنا الآمال صاروا أطباء وكتابا لكي يتقاسموا الأرواح والأموال، وحكى ابن عبدوس[232] في كتاب الوزارة ان المنصور قلد حماد التركي السواد. وأمره ان لا يدع أحدا من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال على أحد من المسلمين الا قطع يده. فأخذ حماد شاهويه[233] الواسطي فقطع يده، وذكر أن أبا جعفر المنصور جلس يوماً في القصر. فبينما هو مشرف اذ نظر الى صياد القى شبكة فاصطاد سمكة عظيمة، فأمر المسيب ان يوكل بالصياد من يدور معه، من حيث لا يعلم. فإذا باعها لأحد قبض على المشتري ويأتي به اليه، ففعل ذلك، فلقي الصياد رجلاً نصرانياً فابتاعها منه بثلاثين درهما. فلما دفع اليه الثمن قبض

(232) ـ هو محمد بن إبراهيم بن عبدوس بن بشير المالكي اشتهر بالفقه والتفسير أصله من العجم وهو من كبار أصحاب سحنون من آثاره المجموعة في الفقه المالكي، التفسير المرابحة والمواصفة والشفعة وشرح مسائل المدونة كحالة معجم المؤلفين 209/8 ابن فرحون الديباج 237

(233) ـ / هو ابو يحيى حماد بن عمر بن يونس بن كليب الكوفي الواسطي موسى بني سؤدة بن عامر ويعرف بعجرد الشاعر، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ولم يشتهر إلا في العباسية ونادم الوليد بن زيد الأموي وقدم بغداد في أيام المهدي. وهو من الشعراء المجيدين توفي سنة 161 هـ، وقتله محمد بن سليمان عامل البصرة بظاهر الكوفة على الزندقة أنظر/، ابن خلكان / وفيات الأعيان جـ 2 ص 210

عليه، وأدخله على أبي جعفر، فقال له بثلاثين درهما. قال وكم عيالك؟ قال ليس لي عيال، قال كم عندك من المال؟ قال ما عندي شيء. فأمر المسيب بمعاقبته، فعوقب فأقر بثلاثين ألف درهم. وانه اختلسها من أموال المسلمين. فأخذها منه، وقطع يده وتركه. فلو رأى أبو جعفر المنصور زماننا هذا، وما ينفق فيه اليهود والنصارى من الألوف، لا قدر لها عندهم ولا قيمة وما عندهم من الأموال ما لا ينحصر. كان أمر بعقوبة الجميع وأخذها منهم غصباً وقد فعل عمر بن الخطاب (رضي الله تعالى) ذلك بالصحابة، وفيه أسوة، شاطرهم في أموالهم. وحاشا الصحابة من الخيانة، وانما حجته في ذلك انهم انتفعوا في أموالهم بجاه المسلمين. فأخذ نصف أموالهم، كما فعل مع ولديه في القراض. قال العلماء هذا انما يفعل فيمن كان له مال قبل التولية، وأما من كان فقيرا قبل ذلك، فإنه يؤخذ ماله كله، فانتفاع المسلمين بها خير من ابقائها مع هذه الطائفة الخائنة، يتخذونها نواة لأهل الإسلام، ويكنزونها لتربص الدوائر، فأخذ أموالهم أضعاف لهم، وكسر لشوكتهم واذلال لكلمتهم، مع ما فيه من استغناء المسلمين بأموالهم، وسرور الموحدين بإذلالهم، وأمن عاقبتهم، من القيام والخروج على أهل الدولة.

البَابُ السَّادسُ

في الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر الأصـل في وجوب الأمـر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الكتاب والسنة واجماع الأمة. أما الكتاب قوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[234] وقال تعالى ﴿الذين ان مكناهم في الأرض، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[235] وقال تعالى في ذم ذلك ﴿لعن الـذين كفروا من بني اسرائيل. .[236] الآية. والآيات في ذلك كثيرة وأما السنة فما روى عنه (ﷺ) انه قال «من رأى منكم منكـرا فليغيـره بيـده. فـإن لم يستـطع فبقلبـه. وذلـك أضعف الايمان»[237] وقال عليه السلام «مثل المدهنين في حدود الله، والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة، صار بعضهم أسفلها، وبعضهم أعلاها. فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذي في أعلاها. فنادوا به فأخذ فاسا فجعل ينقر سفل السفينة فأتوه، فقالوا ما لك قال تأديتم لي ولا بد لي من الماء. فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وان تركوه هلك وأهلكوا أنفسهم»[238] وهذا من التمثيل البديع، لأن مولي الكفرة على المسلمين ان

(234) ـ آل عمران 110

(235) ـ الحج / 41

(236) ـ المائدة / 78

(237) ـ مسلم في الإيمان 78 والترمذي في الفتن 11 والنسائي في الإيمان 17 وأحمد في جـ 3 ص 20

(238) ـ بخاري نهاوان / 30 الترمذي فتن 13 / أحمد جـ 4 ص 268.

لم يمنع من ذلك أدى إلى هلاكه، وهلاك غيره. كما أن نقير السفينة بالناس، ان لم يرد أهلك نفسه وغيره، وأغرق كل من فيها. وعنه (ﷺ) انه قال «اذا عملت الخطيئة في الأرض من شهدها فانكرها كان كمن غاب عنها. ومَن غاب عنها، فرضيها، كان كمن شهدها»[239] وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. قال «يا أيها الناس ان كنتم تقرأون هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم﴾[240] فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول «ان الناس اذا رأوا منكرا فلم يغيروه، يوشك أن يعمهم الله بعقابه» ﴾[241] وقال عليه السلام «لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم. وهم قادرون على أن ينكروه. فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة[242]. «قال العلماء والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، فرض العلماء فيه تنبيه الولاة وحملهم على جادة العلم. وفرض الولاة تغييره بنفوسهم، وسلطانهم. وفرض سائر الناس، رفعه الى الحكام والولاة بعد النهي عنه. «قال العلماء ويحسن لكل مؤمن أن يغير المنكر، وإن ناله الأذى ويؤدي هذا ان في قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم» وقال تعالى ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف، وأنه عن المنكر واصبر على المنكر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور﴾[243] قال بعضهم التغيير باليد للأمراء، وباللسان للعلماء، وبالقلب للعامة، فينبغي للأمراء أن يأمروا في السر ان استطاعوا، ليكون أبلغ في الموعظة والنصح، وادعى للقبول. وروي عن أبي الدرداء[244] رضي الله عنه قال «لتأمرون

(239) ـ أبو داوود في الملاحم 17

(240) ـ المائدة / 105

(241) ـ ابن ماجة في الفتن 20 وأحمد في جـ 1 ص 2، 5، 9

(242) ـ الترمذي في الفتن 8 والطبراني في الكلام 23

(243) ـ لقمان / 17

(244) في إسمه خلاف ذكره ابن عبد البر منها عامر بن مالك وعويمر لقب آخى رسول الله بينه وبين سلمان الفارسي. توفي سنة 32 هـ بدمشق في خلافة عثمان روي أن الرسول ﷺ قال فيه «عويمر حكيم امتي» أنظر / ابن عبد البر / الإصابة في معرفة الصحابة جـ 4 ص 1646

بالمعروف، وتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم، من لا يجل كبيركم، ولا يرحم صغيركم، وتستنصرون فلا تنصرون، ويستغفرون فلا يغفر لكم» قال مالك [245] بن دينار، ان الله تعالى أوحى الى ملائكته أن أخربوا قرية كذا، فضجت الملائكة إلى ربها تعالى، وقالوا ربنا ان فيها فلانا عبدك العابد، فقال - عز من قائل - اسمعوني ضجيجه فإن وجهه لم يتغير غضبا عن محارمي. فينبغي ان من سمع هذه الآيات والأحاديث الشريفة في حق هؤلاء اليهود والنصارى، ان يظهر والغيرة لله تعالى. فينبغي على أهل الاسلام أن يغيروا هذا المنكر العظيم، الذي عم به الفساد ووجب به الجهاد باللسان والجنان والأركان. وهو ما ينال المسلمين من أهل الذمة في وقتنا هذا من انتهاك ضرهم، وخذلانهم والخيانة في أموالهم، وإهانة صلحائهم، وعلمائهم والاستعلاء عليهم، والطعن في دينهم، وهذا من الفساد العظيم والخطب الجسيم. قال بعض العلماء من كان بأرض وأظهروا فيها الفساد والمعاصي، فخرج منها ابتغاء وجه الله فقد اقتدى بابراهيم عليه السلام، ومحمد (ﷺ) ويكون رفيقا لهم في الآخرة. فإن ابراهيم عليه السلام هاجر من أرض حران إلى الشام. قوله عز وجل وقال ﴿اني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾[246] يعني إلى طاعة الله ربي وقد هاجر سيدنا محمد (ﷺ) من مكة إلى المدينة. روي عن ابن مسعود يجب على من رأى منكرا لا يستطيع له تغييرا ان يعلم الله في قلبه أنه كاره. وهذا فيمن لا يقدر على التغير، ولا يقدر على تبليغه لذوي الأمير. وأما من يقدر على تبليغه، فيجب عليه ذلك. ويأثم بتركه، ويخشى عليه نزول البلاء في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى ﴿فليحذر الذين يخافون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[247] وبالجملة فاستكتاب

---

(245) - هو مالك بن دينار السامي الناجي. كان أبوه من سبي سجستان وقيل من كابل، روى عن أنس بن مالك والأحنف وشهر بن حوشب وغيرهم. وكان يكتب المصاحف ويتقون بأجرته، مات سنة 127 وقيل 133 هـ. وكان ثقة قليل الحديث، أنظر/ ابن حجر/ تهذيب التهذيب جـ1 ص 14.

(246) - الصافات 99

(247) - النور / 63

اليهود والنصارى، وعلوهم على المسلمين مصيبة في الدين، ومنكر عظيم يجب على من قدر على إزالته، أن يزيله ومن لم يقدر على ذلك فليرفع الأمر الى من هو أقدر منه. ولينكر بقلبه على أعداء الله، ويبغضهم ويسأل الله تعالى كفهم عن أمة سيدنا محمد (ﷺ) فإن هذا أعظم المصائب في الدنيا.

البَابُ السَّابِع

في الظلم وسوء عاقبته

الظلم في اللغة، وضع الشيء في غير محله. فاعلم أن من ولى اليهود والنصارى، في شيء من أمور المسلمين، فقد وضع الشيء في غير محله. مع ما تضمن ذلك من مخالفة أمر الله تعالى ورسوله. لأنه اذا ولى العدو على عدوه علم قطعا انه يؤذيه ويغشه ولا ينصحه. وقد قال الله تعالى في حق المؤمنين ﴿أولئك خير البرية﴾[248] وقال في حق اليهود والنصارى (أولئك هم شر البرية﴾[249] فمن أشد الظلم أن يولي شر البرية، على خير البرية. وقد قال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿ولا تطع من أغلفنا قلبه عن ذكرنا، واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾[250] فاقتضت هذه الآية أن لا يولي كافر أبدا فإن الله أمر بطاعة الولاة والانقياد اليهم. ونهى عن طاعة الكفار، فاستفيد من هذا تحريم ولايتهم. قال الله تعالى في حق المؤمنين ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ويريدون وجهه. ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾[251] وقال في حق الكفار ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا..﴾[252] الآية. اقتضت هذه الآية اهانة الكفار، وتسميتهم ظالمين، وتحريم الجلوس معهم، فكيف بمشاورتهم واستكتابهم وتحكيمهم في المسلمين. فمن فعل ذلك فقد ظلم ظلما كبيرا، وجار جورا عظيما قال تعالى ﴿ولا تحسبن الله بغافل عما يعمل

(248) البينة/ 7.

(249) ـ البينة/ 6.

(250) ـ الكهف/ 28.

(251) ـ الكهف / 28

(252) ـ الأنعام / 68

الظالمون﴾[253] قال تعالى ﴿وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾[254] وقال تعالى ﴿وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير﴾[255] قال كعب[256] الأحبار لأبي هريرة (رضي الله عنه) في التوراة من يظلم يخرب بيته. فقال أبو هريرة وفي كتاب الله تعالى ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾[257] وقال تعالى ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[258] وقال (ﷺ) «اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» [259] وقال عطاء[260] كنا مع ابن عباس، في مسجد بيت الله الحرام، فقال لي يا عطاء هل تعرف فضيلة هذه الأمة؟ فقلت الله ورسوله وابن عمه أعلم. فقال شرفهم الله في محكم كتابه في مواضع كثيرة منها؛ قوله تعالى ﴿هو الذي يصلي عليكم، وملائكته، ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾[261] كيف ترى العز والشرف فقلت الحمد لله. قال وهل تعرف غير هذه قلت لا. قال الله تعالى ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الا علون﴾[262] كيف تر هذا العز؟ قلت الحمد لله، وقال هذا لمحمد ﷺ «واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين»[263] كيف تر هذه الأمة قلت عظيا جليلا. وقال تعالى لابراهيم عليه السلام «شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم»[264] وقال تعالى ليوسف «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث[265] وقال تعالى ليونس عليه السلام ﴿فاجتباه

(253) ـ إبراهيم / 42

(254) ـ الحج / 45

(255) ـ الحج / 48

(256) . . .

(257) ـ النمل / 52.

(258) ـ الإسراء / 16

(259) ...

(260) ـ هو عطاء بن أبي رباح اسلم. نشأ بمكة وهو مولى ابي ميسرة بن أبي خيثم الفِهْري. كان يعلم الكتاب فقيهاً عالماً ثقة كثير الحديث. وكان من أعلم الناس بالمناسك ولد سنة 27 هـ وكان من سادات التابعين فقهاً وعلمًا وورعاً وفضلاً الطبقات 468/5 ومات سنة 114 وقيل 117 هـ أنظر / ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ 7 ص 199

(261) ـ الأحزاب/ 43.

(262) ـ آل عمران/ 139.

(263) ـ الشعراء/ 215.

(264) ـ النحل/ 221.

(265) ـ يوسف/ 6.

ربه﴾[266] وقال تعالى لهذه الأمة ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم﴾[267] كيف ترى عند هذه الأمة قلت جليلا عظيما قال وأجل من هذا وأعظم أنجى ابراهيم من نار الدنيا فقال سبحانه ﴿قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم﴾[268]، وأنجى هذه الأمة جميعا من النار فقال تعالى ﴿كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾[269]. كيف ترى عن هذه الأمة قلت عظيما. قال أعظم من هذا ان الله تعالى عز هذه الأمة بعز نبيه، وعلق عز نبيه بعز نفسه، فقال عز من قائل «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»[270] كيف ترى عن هذه الأمة، قلت عظيما جليلا قال وما هو أعظم من هذا قوله تعالى ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج. ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين﴾[271] فكان ابراهيم عليه السلام لقومه نبيا. ولهذه الأمة أبا. وقدر الله تعالى لهذه الأمة مع أنبيائه عليهم السلام بالاستجابة فقال تعالى في قصة أيوب حين قال «مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له»[272]، وقال تعالى ﴿وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين، فاستجبنا له﴾[273]' وقال في قصة ذي نون ﴿وذا النون اذ ذهب مغاضبا، فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات، أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له»[274]، وقال تعالى لهذه الأمة ﴿ادعوني أستجب لكم﴾[275] كيف ترى هذه الأمة قال عظيما وأثنى عليهم في كتابه العزيز فقال ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[276] وقال تعالى ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار﴾[277] إلى آخر السورة فهذا هو الشرف العظيم الباهر، والعز الكرم الفاخر، والمنزلة الرفيعة، والفضل العظيم، فلا يجوز أن يتولى على المسلمين من أخبر الله تعالى عنهم ظالمون، وقال سيد

---

(266) ـ القلم/ 50.
(267) ـ الحج / 78
(268) ـ الأنبياء 69
(269) ـ آل عمران 103
(270) ـ المنافقون /8
(271) ـ الحج 78
(272) ـ الأنبياء 83
(273) ـ الأنبياء 89
(274) ـ الأنبياء 87
(275) ـ غافر / 60
(276) ـ يونس / 62
(277) ـ الفتح / 29

المرسلين «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[278] وقال عمر بن عبد العزيز أحب الأمور إلى الله الأمور ثلاثة؛ العفو عن المقدرة، والقصد في الجدة، والرفق بعباد الله تعالى، وما رفق أحد بعباد الله تعالى إلا رفق الله به» وعنه عليه السلام أنه قال «يا أيها الناس أتقوا الله، ولا يظلم منكم أحد مؤمنا. وما ظلم أحد مؤمنا الا انتقم الله منه يوم القيامة». فأي ظلم أظلم من اليهود والنصارى، الذين قال الله تعالى فيهم ﴿والكافرون هم الظالمون﴾[279]ومن كان ظالما وجب كفه ومنعه عن التحكم في عباد الله تعالى، ومن سلطهم على ذلك فقد أعانهم على الظلم والفساد، وباع آخرته بدنياه، وتكون له نهاية في الجهل. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للأحنف[280] بن قيس من أجهل الناس؟ قال من باع آخرته بدنياه. قال عمر ألا أنبئك بأجهل من هذا؟ قال بلى! قال من باع آخرته بدنياه غيره فكيف بمن باع آخرته بدنياه عدو الله ورسوله. في هذا كفاية وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(278) ـ البخاري في المظالم 3 والإكراه 7 ومسلم في البر 32 وأبو داوود في الإيمان 7 والترمذي في الحدود 3 وأبن ماجة في التجارات 45 وأحمد في جـ3 ص 8, 6

(279) ـ البقرة / 254

(280) ـ هو الأحنف بن قيس العدي التميمي يكنى أبا بحر واسمه الضحاك بن قيس وقيل صخر بن قيس بن معاوية. ادرك النبي ولم يره، ودعا له النبي (ﷺ) واسلم في عهد الرسول ولذلك عده ابن عبد البر من الصحابة. ويعد من كبار التابعين في البصرة. توفي في الكوفة سنة 67 هـ زمن امارة مصعب ومشى مصعب في جنازته.
أنظر / ابن عبد البر / الإصابة جـ1 ص 144

الباب الثامن

في مواعظ وحكايات احتضرناها، نقول منها، المراد. فمن ذلك، انما يولونها لأجل الدنيا وهي زائلة ليس لها بقاء يقال فيها.

ولا شيء يدوم فكن حديثا   جميل الذكر فالدنيا حديث

وقال آخر:

وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثا حسنا لمن وعى

واعلم أيدك الله، انه ليس يخفى على أحد أن هذه الدنيا ليست بدار مقر وانما هي دار ممر. والناس فيها على صورة المسافر. مبدأ سفرهم بطون أمهاتهم. والدار الآخرة مقصودهم، وزمان الحياة مقدار المسافة، فسبحان من تفرد بالعزة والكبرياء والبقاء. واعلم أن الموت وإن كان هو المصيبة العظمى، والرزية الكبرى، فأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره، وقلة التفكر فيه وحده لعبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن يتفكر قال عمر رضي الله عنه: أخذ رسول الله (ﷺ) ببعض جسدي وقال «يا عبد الله كن في الدنيا غريب. أو عابر سبيل. وأعد نفسك في الموتى»[281] فيا أيها الغافل «لا تخدع كما خدع من كان قبلك. فإن الذي أصبحت فيه من النعم، انما صار اليك بموت من كان قبلك. وهو خارج من يدك بمثل ما صار اليك، فلو كانت الدنيا ذهبا وفضة، ثم سلمت عليك بالخلافة،

(281) ـ البخاري في الرقاق 3 والترمذي في الزهد 25 وابن ماجة في الزهد 3 واحمد في جـ 2 ص 24، 41، 131

وألقت اليك مقاليدها، ثم كنت طريد الموت ما كان ينبغي لك أن تتهنا بعيش، فانه لا فخر بما يزول، ولا غنى فيما لا يبقى».

قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم فتبسمت عجبا ولم تبدي
حتى مررت على الكنيف وقال لي أموالهم ونوالهم عندي

وقال الطرطوشي ان ببلاد الهند يوما يخرج الناس فيه إلى البرية فلا يبقى بتلك البلاد صغير ولا كبير ولا طفل ولا امرأة حتى يخرج وذلك اليوم بعد انقراض مائة عام مضت إلى ذلك اليوم، وبتلك البرية حجر كبير جدا مصطع. فإذا اجتمع العالم في تلك الصعيد، نادى منادي الملك، لا يصعد على هذا الحجر إلا من حضر في الجمع الذي قد خلا من مائة سنة. فربما جاء الشيخ الهرم الذي قد ذهبت قوته، وعمي بصره، وفنا شبابه، وتجيء العجوز تزحف، ولم يبق منها إلا رسمها، وقد انحنى الدهر عليها، فيصعدان على الحجر الذي هناك، ويقول الشيخ قد حضر الجمع الأول منذ مائة عام، وأنا طفل صغير وكان الملك فلانا يضيف الجيوش الماضية والأمم الخالية. وكيف طحنهم البلاء وصاروا تحت طباق الثرى. ويقوم خطيبهم فيعظ الناس، ويذكرهم صرعة الموت، وحسرت القوت، فيبكي القوم ويتوبون من المظالم، ويكثرون الصدقة، ويخرجون عن التبعات، ويصلحون على ذلك مدة. وقف مالك بن دينار يوما على المقابر وتمثل يقول:

وأين الملوك وأعوانها وأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطاته وأين القوي إذا ما اقتدر
وأين الملبي إذا ما دعا وأين المزكي إذا ما افتخر

فأجابه هاتف داخل القبور وهو يقول:

تفاتوا جميعا ولا مخبر وماتوا جميعا ومات الخبر
فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما مضى معتبر

روى عنه عليه السلام انه ضرب مثلا للدنيا ولابن آدم كمثل رجل

له ثلاثة أخلاء، فلما حضره الموت، قال لأحدهم قد كنت لي خليلا مكروما موثورا، وقد حضرني من أمر الله ما ترى، فما عندك؟ فيقول، هذا أمر الله غلبني عليه. لا أستطيع أن أنفس كربك، ولكن ها أنا بين يديك، فخذ مني زادا ينفعك، ثم يقول للثاني قد كنت عندي أثرى الثلاثة، وقد نزل لي من أمر الله، ما ترى فما عندك؟ فيقول هذا أمر الله غلبني عليك، ولا أستطيع أن أنفس كربك، ولكن ساء قوم عليك في موضعك فإذا مت أنقيت غسلك، وجودت كفنك، وسترت جسدك، وعورتك، وقال للثالث قد نزل لي من أمر الله ما ترى، وكنت أهوى الثلاثة علي، فما عندك؟ قال اني قرينك وحليفك في الدنيا والآخرة. أدخل معك قبرك حين تدخله. وأخرج معك حين تخرج. ولا أفارقك أبداً. قال النبي (ﷺ) الأول ماله، والثاني أهله، والثالث عمله. وفي هذا عبرة للمعتبرين وآية للمستبصرين أيقظنا الله واياكم من الغفلة وجنبنا ما يورثنا المقت والزلة وجعلنا ممن يرود للرحلة ورزقنا في جناتنا عملا يقربنا اليه، ويباعد بيننا وبين أعدائه. وحشرنا في زمرة أوليائه إنه قريب وهو حسبنا ونعم الوكيل «وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً». ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين. وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة يوم الخميس تاسع شهر ربيع الأول، من شهور سنة ثلاثة عشر بعد الألف، غفر الله لكاتبها، ومالكها، وقارئها، ولكل المسلمين، والحمد لله رب العالمين آمين.

19 ربيع الأول 1013

المحتويات

دار الغرب الاسلامي / الحبيب اللمسي

شارع المعماري ـ بناية الاسود ـ تلفون 340131 ص·ب 113/5787 بيروت

رقم 13/ 3000/ 3 /1982

